

٢٥  
الجنـة البـيـان العـربـي

# ابن قيس الرقيات

شاعر السياسة والغزل

تأليف

على النجدي ناصف

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول



المجلد الثاني من العرني

# ابن قيس الرقيات

شاعر السياسة والغزل

تأليف

على النجدي ناصف

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول



## بسم الرحمن الرحيم

أحمد الله رب العالمين ، وأصلى على رسوله الكريم : محمد  
صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وسائر الأنبياء والمرسلين .  
وهذا كتاب عن عبيد الله بن قيس الرقيات ، أردت به  
عرض حياته وتصوير فنه ، جهد ما أمكنت الطاقة ، وأسعفت  
المراجع التي أتيت لي الاطلاع عليها والانتفاع بها . وسيرد ذكرها  
بمواضع الاقتباس منها للكتاب : كل بموضعه . وتحريت أن يكون  
لوجه الإنصاف ، وفي سبيل الحقيقة كل ما بسطت من رأى ،  
وعالجت من درس .

ولئن كان بغض الأعلام حقيقاً أن يبعث بسيرته وحدها ،  
أو بآثاره وحدها ، ليكون ابن قيس من أولئك الذين يستحقون  
أن يعيشوا بهما معاً .

لقد كان صاحب رأى آمن به ، وأخلص له ، ولم يحجم في  
سبيل نصرته أن يقذف بنفسه في عباب الحياة السيامية المائجة  
المضطربة ، يحاول مع المحاولين أن يميلوا بتيارها عن مجراها ،  
ويسيروه إلى حيث يشتهون ، لكنه كان جباراً عارماً لا قبل لهم به ،  
فما استطاعوا أن يحولوه ولا أن يعوقوه ؛ فضى لطيفه ، لا يذر

معتزلاً إلا جرفه أو أتى عليه . ولولا أن كانت لصاحبنا بقية من أجل هلاك مع الهالكين .

في سيرته إذا مجال للتدبر والاعتداء .

وكان بفضل من آياه النفسية ، وخصائصه الفنية — مثلاً صالحاً من الشعراء الإسلاميين ، فسكان إلى سماحة طبعه ، وجيشان عاطفته — طيب النفس ، رقيقاً ، عفاً ، خيراً ، خفيف الروح . تطالعك من شعره طرائف عذبة من بواكير الفن الإسلامي المهذب المصقول : يلتقي فيها كرم العرق بجلال العتق ، ونصاعة البراءة بسلامة الفطرة ، وتسلم على حدائق العهد بالجاهلية من الغلاظة والجفاء .

في شعره إذا صقال وتهذيب .

وعسى الله أن يهيئ كل ما أردت بهذا البحث من خير ومتاع .

غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٨  
٣١ مارس سنة ١٩٤٩ } القاهرة في  
على النعبري ناصف

## حياة ابن قيس

لا سنيل إلى تفصيل حياة ابن قيس وبسط القول في جوانبها المختلفة ؛ فليس لدينا عنها أبناء وافية ، ولكن أشتات مقتضبة لا نظام فيها ولا غناء وما صاحبنا في هذا بيدع ولا وحيد ، ولكننا حكم العصر والبيئة يجرى عليه كما جرى على سواه من أعلام القدماء .

ومع ذلك لقد تنهنا لنا بالتنقيب والدرس والمقابلة والاستنباط — أن نخلص له بترجمة لا أدعى أنها تقول كل شيء ، ولكن الذى تقوله ليس بقليل .

١ — نسبه :

قرشى لأبيه وأمه ؛ فأبوه من بنى عامر ابن لؤى . وهو قيس بن شُرَيْح ، بن مالك ، بن ربيعة ، بن أهيب ، ابن ضباب ، بن حُجير ، بن عبد مَعِيص ، بن عامر ، بن لؤى بن غالب .

وأمه من بنى ليث بن بكر ، بن عبد مناة . وهى قتيلة ، بنت وهب بن عبد الله ، بن ربيعة ، بن طريف ، بن عدى ، بن سعد ابن ليث ، بن بكر ، بن عبد مناة ، بن كنانة .

وكان بنو مَعِيص بن عامر بن لؤى وبنو محارب بن فهر متحالفين ، وكان يقال لهما الأجر بان من أهل تهامة ؛ لشدة

بأسهم ، وأذاهما من يناوئهما كما يؤذى الجرب من يبتلى به <sup>(١)</sup> .  
وعما قال ابن قيس في الفخر بنسبه :

وقد علت قرش أنه (م) ما فرع إذا انتسبوا  
مراجع في صفو فهم وفُرسان إذا ركبوا <sup>(٢)</sup>  
وأخوالى بنو ليث وضنن نسايم نجب <sup>(٣)</sup>  
هم منعوا تهامة حية (م) ت تحمي بعضها العرب

٢ - مولده :

فجع ابن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير في السنة الثانية  
والسبعين ، أو الثالثة <sup>(١)</sup> والسبعين للهجرة ؛ فلم يسعه إلا أن يفر إلى  
السكوفة ؛ نجا بنفسه من الأموية . وهناك استخفى عاما أو أكثر  
من عام ، ثم خرج ، فاستشفع عبدالله بن جعفر بن أبي طالب إلى  
عبد الملك بن مروان ؛ فأمنه عبد الملك وقبل الشفاعة فيه ، ولكنه  
أبى أن يكون له عطاء مع الناس ؛ فخرج ابن قيس ، وقال لعبد الله :  
ما نفغنى أمانى ، تركت حيا كيت لا آخذ مع الناس عطاء أبدا ؛  
فقال له عبدالله : كم بلغت من السن ؟ قال ستين سنة ؛ قال : فعمر  
نفسك ؛ قال : عشرين سنة من ذى قبيل <sup>(٢)</sup> ؛ فذلك ثمانون سنة ؛ قال :  
كم عطاؤك ؟ قال : ألفا درهم ؛ فأمر له بأربعين ألف درهم <sup>(٣)</sup> . . .

(١) الأغاني : ٥ : ٧٣ (٢) مراجع : حلاء (٣) الشذوذ : الولد والاصل

(٤) من ذى قبل : ما استقبل من العمر (٥) الأغاني : ٥ : ٧٦



قَابِ قَيْسٍ عَلَى هَذَا كَانَ فِي السِّتِينَ مِنْ عَمْرِهِ حِينَ ظَفَرَ بِالْأَمَانِ  
مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ : أَيْ بَعْدَ مَقْتَلِ مُصْعَبِ بَعَامٍ فِي رِوَايَةٍ وَأَكْثَرُ مِنْ  
عَامٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى . وَإِذَا يَكُونُ مَوْلَدُهُ بَيْنَ السِّتِينَ : الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ ،  
وَالْخَامِسَةَ عَشْرَةَ لِلْهَجْرَةِ عَلَى التَّقْرِيبِ .

هَذَا زَمَانٌ وَلَادَتِهِ . أَمَّا مَكَانُهَا أَوْ عَلَى الْأَقْلِ مَكَانُ إِقَامَتِهِ فَلَمْ  
نَعُثِرْ عَلَيْهِ فِي نَصِّ صَرِيحٍ . وَالنُّصُوصُ الَّتِي تَضُمُّنَتِهَا مُتَخَالِفَةٌ ، حَتَّى  
مَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ فِيهِ إِلَى رَأْيٍ يَصْحُحُ الْإِتِّفَاقُ عَلَيْهِ ؛ فَصَاحِبُ  
الْأَغَانِي يَذْكُرُ أَنَّهُ حِينَ خَرَجَ مِنْ مَخْبَأِهِ بِالْكُوفَةِ قَصَدَ إِلَى مَكَّةَ ؛  
فَلَقِيَ أَهْلَهُ هُنَاكَ <sup>(١)</sup> . وَشَارَحَ دِيوَانَهُ يَذْكُرُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِهِ قُتِلَ  
فِي مَوْقَعَةِ الْحَرَّةِ ، مِنْهُمْ أَسَامَةُ وَسَعْدُ ابْنَا أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ <sup>(٢)</sup> .  
وَالشَّاعِرُ نَفْسَهُ يَذْكُرُ أَنَّ لَهُ دَارًا يَثْرِبُ إِذْ يَقُولُ :

تِلْكَ نَارُ أَضْيَاءٍ حِينَا سَنَاهَا      لِحُبِّهِ لَهْ يَثْرِبُ دَارُ  
فَهَلْ كَانَ مَقَامُ الشَّاعِرِ بِمَكَّةَ وَمَقَامُ سَائِرِ أَهْلِهِ بِالْمَدِينَةِ ، أَوْ كَانَ  
مَقَامُهُمْ جَمِيعًا بِالْمَدِينَةِ ثُمَّ رَحَلُوا عَنْهَا إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ  
قَتْلٌ فِي مَوْقَعَةِ الْحَرَّةِ <sup>(٣)</sup> ؟

---

(١) الْأَغَانِي : ٥ : ٧٧ (٢) الدِّيَّان : ١٨٥

(٣) أَيْ حَرَّةٌ وَأَقَمَ ، وَهِيَ حَرَّةٌ بِظَاهَرِ الْمَدِينَةِ . وَفِيهَا كَانَتِ الْوَقْعَةُ الْمَشْهُورَةُ بَيْنَ أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ وَجُنُودِ يَزِيدٍ أَوَّخَرُ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٦٣ . وَذَلِكَ أَنَّ عُمَانَ بْنَ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَوْفَدَ  
إِلَى يَزِيدٍ وَفَدَا مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؛ فَأَكْرَمَ يَزِيدٌ وَقَادَهُمْ ، وَأَجْزَلَ صِلَاهُمْ . فَلَمَّا  
عَادُوا تَتَابَعُوا بِالْقَتْلِ وَالشَّتْمِ ، وَأَذَاعُوا أَنَّهُمْ خَلَعُوا قُبُحَهُمُ النَّاسِ ، وَوَلَوْ أَمْرَمَ عَبْدُ اللَّهِ —

وأيا ما يكن الواقع فقد هاجر بعد هذه الموقعة بعض المقيمين في المدينة من أهله . فقد جاء في الديوان : أن امرأة أسامة بن عبدالله بن قيس الرقيات حملت ولدها قيساً وعقبه ومحمداً إلى الجزيرة حين قتل أبوه وعمهم <sup>(١)</sup>

٣ — اسمه :

قال البغدادي في خزائن الأدب : . . . فإن لقيس ابنين : عبدالله وعبيد الله . واختلفوا في الشاعر منهما ، فقال ابن قتيبة والمبرد في الكامل : هو عبيد الله المسكبر ، وقال المرزباني في معجمه : هو عبيد الله بالتصغير . قال : ومن الرواة من يقول : الشاعر عبد الله . وهو خطأ <sup>(٢)</sup> .

وليس عجيباً أن يقع هذا الخلاف بين الرواة ؛ فلعله أن يكون الخلاف الذي لا معدى لهم عنه ، ولا سبيل إلى اتقاء الوقوع فيه ؛ لأن الاسمين يتفقان في العجز ، ولا يختلفان في الصدر بغير زيادة الياء في عبيد . وهنا كما لا يخفى — يتسع مجال اللبس ، ويشق اجتناب التصحيف والخلط . ولو كان عبيد الله هو الشاعر بلا

---

— ابن حنظلة الأنصاري ؛ فأرسل إليهم يزيد النعمان بن بشير الأنصاري ناصحاً وتذكيراً ، فلم يستمعوا له . فأرسل إليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري ، فدعاهم مسلم إليه ، ونصح لهم بالطاعة ، وحذرهم الفتنة ، وأمهلهم ثلاثاً ، فلم يستجيبوا له ؛ فوقع بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة أهل المدينة وقتل ساداتها . وأباح مسلم المدينة ثلاثاً ، ثم أخذ البيعة ليزيد . (١) الديوان : ١١٢ (٢) خزائن الأدب : ٣ : ٢٦٧

خلاف ، ولم يكن له مع ذلك أخ يسمى عبد الله — لا يمكن للشبهة  
اليسيرة في الرواية أو النبذة الضئيلة في النسخ أن يتوقف متحرز  
مرتاب في صدر الاسم : أهو عبيد أم عبد ؟ ؛ لأن مكبرهما أشيع  
من المصغر تداولا في التسمية ، وأسرع منه خطورا بالبال ،  
فكيف وإن معه أخاه عبد الله ؟

ويظهر أن الشاعر هو عبيد الله المصغر ؛ ففي المراثية التي رثى بها  
قتلى الحرة من أهله حين نوا إليه وهو بالرقعة — يذكر اسم عبد  
بلفظه المكبر ، وينسب بعض القتلى إليه على أنهم بنوه ، فيقول :  
وأنى كتاب من يزيد وقد شُد الحزام بسرج بغلتيه  
ينعى بنى عبد وإخوتهم حل الهلاك على أقاريه  
ونعى أسامة لي وإخوته فظلت مُستَكَمًا مسامعيه (١)  
فهو فيما يسبق إلى الفهم إنما يعنى بعبد هنا أخاه عبد الله ؛  
إذ ليس في سلسلة نسبه ولا في المعروفين من أهله من يسمى عبدا  
سوى أخيه عبد الله ، وجده السابع عبد بن مَعِيص ؛ لكن المقام  
لا يقتضى النسبة إلى هذا الجد ؛ فهو بارتفاع مكانه من سلسلة  
النسب — يستوعب حين ينسب إليه أهل بيته وذوى رحمه من  
الأقارب والأباعد . وهؤلاء لم يقتلوا جميعا في الحرة ، ولكن  
قتل منهم ناس لا غير ؛ فما كانت الحرب بين الخليفة وبينهم وحدهم

ولكن كان معهم فيها غيرهم من أهل المدينة . ويؤكد هذا المعنى قول الديوان : . . . حتى كانت وقعة الحرة ؛ فقتل فيها ناس من أهله . (١)

ربما قيل : إن الشاعر قد آثر في تعبيره المبالغة أو التجوز ؛ فقد يكون الذين قتلوا هم الكثرة الغالبة أو الصفوة المختارة ، والذين بقوا هم القلة الضئيلة أو البقية المطروحة ، لا مزية لها ، ولا معول عليها في مدافعة أو تحصيل . ولكن يبقى حيثئذ أن يكون ذكر الإخوة في قول الشاعر في أبياته السابقة : « ينعى بنى عبد وإخوتهم » من قبيل الفضول الذى لا حاجة إليه ، إن لم يكن من قبيل اللغو الذى لا معنى له ؛ فالنسبة إلى عبد معيص كما أسلفنا حرية أن تتم بالحكم أهله ، ولا تكاد تغادر منهم قريباً أو بعيداً . فما ذكر الإخوة معهم حيثئذ ؟

والمفهوم أن تسمية قيس أحد ابنيه بعبد الله ، والآخر بعبيد الله — لم تكن لغوا فارغا ، ولا عبثاً ليس وراءه غاية ، وإنما كان عملاً مقصوداً أريد به الدلالة والتمييز بين الأخوين . والظاهر أن الشاعر كان أصغر سناً من أخيه ؛ فقد كانت سنه في موقعة الحرة دون الخمسين ، على حين كان لأخيه إذ ذاك بنون وحفدة كما يدل عليه كلام الديوان فيما سبق عن المهاجرين من أهله .

ملاحظة إلا تسكن وحدها مغنية في الموضوع فلعلها أن نصير مع  
التي قبلها ذات غناء فيه ؛ فيتألف منهما بيئة قائمة أو قرينة مرجحة  
لما ذهبنا إليه من رأى في اسم الشاعر واسم أخيه .

#### ٤ - كنيته ولقبه :

إذا قيل ابن قيس الرقيات فالمراد عبيد الله ، دون أخيه عبد الله .  
هكذا يقول البغدادي في خزائن الأدب<sup>(١)</sup> . فإن قيس إذا كنية  
غلبت على الشاعر واختص بها ، وإن كانت بحكم بنوتهما لقيس  
تصلح لأخيه كما صلحت له . ويكنى الشاعر بها نفسه في غير  
موطن من شعره ، كقوله :

زعم ابن قيس وهو غير مكذّب أن القبح برزقه نغوالى  
وقوله :

رأت بي شية في الرأ من منى ما أغيبها  
فقلت : ابن قيس ذا ؟ وغير الشيب يعجبها  
وأما لقبه فالرقيات على خلاف في ذلك بين الرواة . فبعض  
يراه لقباله ، وبعض يراه لأيه<sup>(٢)</sup> . والخلاف هنا لا يقف عند  
الحقيقة التاريخية ، ولكن يجاوزها إلى الإعراب وضبط الكلمات ؛  
فاللقب كما لا يخفى يجرى حين الإتيان مع الاسم على مدار المعاني

( ١ ) الخزائن : ٣ : ٢٧

( ٢ ) المصدر السابق

والتراكيب . ثم إن الرواة يختلفون أيضاً في شخصيات هؤلاء الرقيات ، وفي سبب تلقيه بهن : فكن على رأى زوجات ، وعلى رأى آخر جدات ، وعلى رأى ثالث معشوقات . وهو قد لقب بهن لهذه الصلة أو لهذه أو لتلك .

ولا يسع الباحث هنا إلا أن يلاحظ أن إضافة الشعراء إلى حباتهم في هذا العصر أمر معروف ، وله أمثلة مشهورة . وهم حري إذا أن يتساءل : ماذا يمنع أن تكون هؤلاء الرقيات حبات لابن قيس ؛ ولسن زوجات ولا جدات ، وأن تكون إضافته إليهن على مثال إضافة جميل إلى بثينة وكثير إلى عزة مثلاً ؟

ولئن كان جميل قصر نفسه على بثينة ، وكثير على عزة ؛ فأضيف كلاهما إلى محبوبته لهذا السبب — لقد أكثر ابن قيس في الغزل بالرقيات ما لم يكثر في غيرهن ، ولتكون إضافته إليهن على التخصيص لهذا الاعتبار . فجملة المقطعات والقصائد الغزلية التي نظمها وسمى المعشوقات فيها نحو خمس وثلاثين : للرقيات منها عشر ، ولسائر المعشوقات وهن نحو أربع عشرة — خمس وعشرون . وليس بعيداً أن يكون بعض هذه الأسماء كناية عن هؤلاء الرقيات أو عن بعضهن .

وذكرهن صاحب الأغاني على أنهن حباته اللاتي شبيب بهن ، وسكت عن الرايين الآخرين ، لا يشير إليهما من قريب أو من

بعيد ، كأنه لا يعرفهما ، أو لا يراها شيئاً يستحق الذكر .<sup>(١)</sup>

## ٥ - رحلته :

لم يكن ابن قيس حلي بيت ، ولكن أخاسفر ؛ يضرب  
هنا وهناك ، ابتغاء الرزق ؛ أو زولا على حكم الحوادث وتقلبات  
الأحوال . وقد وصف نفسه بذلك في قوله :

قالت كثيرة لى : قد كبرت وما بك أليوم من داهمه  
رأت رجلاً شاحباً لونه أخاسفر أنزع القادمة<sup>(٢)</sup>  
وقوله

لستُ بِجِثَامَةٍ لَهُ كَرَشٌ يَأْكُلُ مَا اسْطَاعَ ثُمَّ يَغْتَسِبُ<sup>(٣)</sup>  
وأول ما يبدو في غير بلاد الحجاز يبدو في بلاد الجزيرة ، حيث  
يقيم هناك بنو عامر بن لؤى في واد يقال له مَوْزَن<sup>(٤)</sup> أو وادى  
الأحرار وأعرف من كان يقيم هناك فمن كان للشاعر بهم اتصال  
وثيق ، ولهم في شعره ذكر وفي حياته عمل — عبد الواحد بن أبي  
سعد بن قيس ، أحد أبناء عمومته . وكان من أولاده رقية بنت  
عبد الواحد إحدى صواحيبه ، وحرب بن عبد الواحد الذى أصاب  
رجلاً من بني ذكوان فقتله ، فكاد ابن قيس يذهب بواهبه لولا

(١) الألفاظ : ٥ : ٧٣

(٢) الأنزع : الذى انصر الفعر من جانبي جهة . القادمة : الجهة

(٣) يتسبى : يشرب القيق ، أى شراب المشى .

(٤) كان بنو عامر بن لؤى يحبون الأمويين ، وقد نزل بهم يزيد بن معاوية في  
خلائته ، فسمى وادهم وادى الأحرار لهذا السبب .

شفاعة الشافعين فيه ، فإن عمير بن الحباب لم يقنع بدية القتيل ، ولم يرض بها بديلا منه ؛ فأغار في عصيته على بني عامر ، وأخذ ابن قيس أسيرا ، وخرج به مجنوبا لا يدفع عنه أحد . ولما هم عمير بقتله وثب إليه رجل من بني قنفذ فخلصه ، وارتحل ابن قيس فنزل الرقة ، وأنشأ في ذلك أبياتا منها :

إن امرأ يرجو وفاء لذمة  
إلى غير عوف من سليم الحائن  
جزى الله يوم المرج رعلا وقنفذا  
جزاء كريما يوم تبلى البواطن (١)  
ومنها يخاطب زوجته :  
فقلبت لها : سيري ظعين فلن تری  
بعينيك ذلا بعد مرج الضيائن  
وسيري إلى القوم الذين أبوهم  
بمكة يخشى نابه والبرائن  
وكرر القول في هذا المعنى حيث يقول مخاطبا حليته أيضاً :  
لن ترى بعد مرج آل أبي البض (م) زن ضيئا ولن أقاد جنيئا  
ودخل تكريت (٢) من مدن الجزيرة أيضاً فأقام بها ، ثم كرهها :

(١) المرج : مرج الضيائن الآن في البيت بعد . وهو موضع قرب الرقة .  
(٢) تكريت : من بلاد الجزيرة على نهر دجلة . بناها سابور ، وتبعها المسلمون سنة ١٦ . وفيها ولد صلاح الدين الأيوبي .



وأنكر المقام فيها بعيداً عن عشيرته بعيداً عن السلطان وعن  
مجرى الحوادث العامة في الدولة :

أتقعد في تكريت لا في عشيرة

شهود ولا السلطان منك قريب

وقد جعلت أبنائنا ترتى بها

بقتل نزار والحروب حروب

وأنت امرؤ للحزم عندك منزل

وللدين والإسلام منك نصيب

فدع منزلاً أصبحت فيه فإنه

به جيف أودت بهن حروب

ومات عبد الواحد بن أبي سعد قبل أن يرحل عن الجزيرة ،

فرثاه بهذه الآيات :

ما خير عيش بالجزيرة بعدما

عثر الزمان ويات عبد الواحد

مات الندى والجود معه وضمنا

قبير الكريم الأرمحي الماجد

ذهب الرجال الصالحون ويُنْقِيت

ضعف الرجال لدى الزمان الفاسد (١)

ورحل إلى فلسطين ، يلتمس من وحشة الجزيرة أنسا ، ومن  
خوفها أمنا ؛ ومن قلقها هدوءا واطمئنانا . وله في ذلك قصيدة  
طويلة ، مطلعها :

أزجرت الفؤاد منك الطروبيا  
أم تصاييت إذ رأيت المشيا ؟  
ومنها يخاطب زوجه :

فاظمني فالحقى بقومك إني  
لا أرى أن أقسم فيكم غريبا  
فأنزلى في بنى كنانة تلقى  
فيهم العزبان دعوت قريبا  
حيث إن خر سيف مولاك لم تح  
شئ من الناس من تجنى الذنوبا  
ثم لم تعدى إذا شئت منا  
فارسا يوم نجدة وخطيبا  
طلالما قد نزلت في عذوات<sup>(١)</sup>  
أرض أقرو بك المكان الخصيبا<sup>(٢)</sup>  
حين للعيش لذة ولنا حا  
ل ، ولم تجعل الخطوب خطوبا

(١) عذوات الأرض . طياتها الواحدة عذاة . أقرو : أتبع .

فأرى الدهر قد تغير بنا  
 من ، وقد كانت الشعوب شعوبا  
 لن تَرَى بعد مرج آل أبي الصد  
 يزن ضيا ولن أقاد جنيا  
 حَلَقَ من بني كنانة حولي  
 بفلسطين يسرعون . الركوبا  
 من رجال تفنى الرجال وخيل  
 رُجُم بالقننا تسد الغيوباً<sup>(١)</sup>  
 لا يبالون من أقام إذا ما  
 كشفوا بالسيوف يوما عصيا  
 ورحل إلى سجستان<sup>(٢)</sup> ، فدح طلحة الطلحات<sup>(٣)</sup> بقصيدة ،  
 ورثاه باخرى . ويظهر أن رحلته إليها كانت من فلسطين ؛ لقوله  
 في قصيدة المدح :  
 وسَرَت بغلتي إليك من الشا

م وحَوَزان دونها والعوير<sup>(٤)</sup>  
 والظاهر أنه رحل بعد ذلك إلى مكة مناصرا لابن الزبير على  
 الأمويين ، فقد كان بالجزيرة حين وقعت وقعة الحرة ، ولم يكن

( ١ ) الغيوب . من سائها الأراضي المغطاة

( ٢ ) سجستان : ناحية واحة بين فارس والسند ، فتحا عمرو بن عاصم في خلافة عمر

( ٣ ) أحد الأجواد المشهورين في الاسلام

( ٤ ) حوران : كورة بدمشق ، واسم موضع يادية المجلوة

ابن الزبير يؤمئذ قد اشتد امره ورجحت كفته ، فكان المدة التي قضاها الشاعر بعد ذلك في الجزيرة وفلسطين وسجستان هي المدة التي استفاضت فيها دعوة ابن الزبير ، وتحوّلت خلالها الأحوال بما يقوى الرجاء في مصير الخلافة إليه .

ومهما يكن من أمر فقد مدحه الشاعر فأقل المدح ؛ إذ لم يقل فيه غير قصيدته التي مطلعها :

زودتُنَا رقية الأحزانَا يوم جازتْ حُموها سكرانَا<sup>(١)</sup>

وهي مع ذلك ليست طويلة ؛ فعدة أبياتها عشرة ، وقد ذهب الغزل منها بثمانية ولم يدع للمدح سوى هذين البيتين :

وابن أسماء خير من مسح الر كَنَ فعلا وخيرهم بنيانا  
وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا<sup>(٢)</sup>

وسواء أكان المروى هنا من المدح هو كل ما قاله الشاعر منه في هذه القصيدة أم كان ما قال أكثر مما يروى — لا جرم أنه مدح عبد الله بأقل مما مدح به أخاه مصعبا ، فكانه لم يأنس بعبد الله ، ولم يجد عنده مبتغاه ، ولو أنه كان صاحب الدعوة الأصيل ومرادها المأمول ؛ لاشتهاره بالبخل وغلبة الانقباض عليه . وكأنما وجد في مصعب عوضا خيرا منه ؛ إذ كان الأخوان على

(١) سكران : واد بمخاريف الشام

(٢) الهجان : خيار كل شيء وعالمه .

خلاف في السجاياء والصفات ؛ لهذا لزمه ، وأخلص له ، حتى كاد يعرف به ويضاف إليه ، وقال فيه من المدائح والمراثي ما لم يقل مثله في أحد سواه ، لا من ناحية المقدار وحده ، ولسكن من ناحية القيمة الفنية أيضا .

وبما مدحه به طويلته المشهورة التي أولها :

أقفرت من عبد شمس كدء      فكندى فالركن فالبطحاء<sup>(١)</sup>  
وهي أطول قصائده كلها ، وأكثرها فتونا ، وأجلها شأنا ، وأوسعها مجال افتخار .

ومنها في مدح مصعب :

إنما مصعب شهاب من الآله      تجلت عن وجهه الظلماء  
ملكه ملك قوة ليس فيها      جبروت ولا به كبرياء  
يتقى الله في الأمور وقد أوف      لح من كان همه الآء تقاء  
ومنها يهدد الأمويين . ويكشفهم بالعداوة والبغضاء :

كيف نومي على الفراش ولما      تشمل الشام غارة شعواء ؟  
تذهل الشيخ عن بنيهِ وتبدى      عن ثراها العقيلة العذراء<sup>(٢)</sup>  
أنا عنكم بنى أمية مزور<sup>(م)</sup> وأتم في نفسي الأعداء  
وخرج ابن قيس مع مصعب إلى العراق ، فلما شخص  
عبد الملك لقتاله وخرج إليه مصعب كان ابن قيس معه أيضا ،

---

( ١ ) كدى وكداء : جلان بمكة ، أولها ، بأعلاها ، والآخر بأسفلها .  
بطحاء مكة : ما حاز السيل من الدم إلى الحناطين ( موضعين ) ، يمتلأ مع البيت ، ليس الصفاة بها .  
( ٢ ) البرة : الخفضال

حتى إذا استفسد عبد الملك أنصار مصعب ، ورأى مصعب ، غدرهم به وانصرفهم عنه ، وأيقن أنه لا محالة مقتول — دعا ابن قيس إليه ، فأعطاه مالا كثيراً ، وأذن له في الانصراف إلى حيث يريد ، لم تلته عنه بوادر المحنة ولا مشاغل التأهب للقتال ، لكن الرجل أبى إلا أن يبقى معه مقبياً على الوفاء له حتى يقضى الله أمره ، ويستبين سبيل الأمير ما يكون ؟

والمفهوم أن الأمير لم يكن له من ابن قيس جندى مقاتل ، ولكن لسان قاتل ، وصديق صدوق .

وآية ذلك أننا نرى الأمير أولاً وقد أبى التسليم وإلقاء السلاح يدعو ابن قيس ، فيجزل صلته ، ويأذن له في مفارقتها . ونظن أنه ما كان ليفعل ذلك وابن قيس من حملة السلاح المحاريين .

وزاه ثانياً وقد أراد ابن قيس — لا يخاطبه خطاب الحاضر القريب ، ولكن يدعو دعوة الغائب يكون على الأقل في ظاهر المبدان .

ونرى الشاعر ثالثاً وقد أبى إلا البقاء مع الأمير — يقول له :  
« والله لا أرى حتى أرى سيملك »<sup>(١)</sup> ، ولا يقول : « ... حتى أهلك معك ، أو أهلك دونك ، مثلاً .

وزاه رابعاً لا يشهد مصرع الأمير ، ولكن يجيئه الانباء به وهو منه بعيد ، كما يفهم من قوله في رثائه :

أناك ياسرَ النباَ الجليل  
فليك إذ أناك به طويل  
أناك بأن خير الناس إلا

أميرَ المؤمنين بها قتل  
فقلت لمن يخبرني حزيننا  
أتعني مصعبا ؟ غالتك غول (١)

فإن يهلك فخدمك شقي  
وعيشكم وأمنكم قليل

والنتيجة التي تنتهي إليها ، ويطلب لنا أن نسجلها هنا أن  
ابن قيس الشاعر قد ربط مصيره بمصير أميره المخدول عن طواعة  
واختيار ، وإنه ليعلم أن مصيره الموت المحتوم : لا حيلة في دفعه ،  
ولا أمل معه في نجاة .

ولو شاء لكان له في مفارقتة رخصة مسوغة ، بل شفاعة  
مقبولة ؛ فقد كان على ما أسلفنا رجلا مدنيا بلغة العصر الحاضر ،  
وقد أعفاه الأمير من أنقال الصعبة والملازمة ، وأذن له في  
الانصراف إلى حيث يشاء ؛ إذ لا نفع لاحد في بقاءه معه ؛ فإنما  
هي التهلكة يقاد إليها ، ويلقى فيها لغير سبب ولا غاية . وماذا في هذا  
من نفع له أو للأمير أو لسواهما من لا يتمنون له الموت ؟ لكن  
الرجل أثر التي هي أجل صنعا ، وأحمد ذكرا ؛ فكان له ما أراد .

( ١ ) غالتك غول : دعتة داهية .

ولم يسع ابن قيس حين نعى الأمير إليه إلا أن يفر ؛ ابتغاء  
النجاة برأسه ؛ فقد كان يعلم أن القوم لن يغفروا له تحريضه عليهم  
وامتداحه لخصومهم ، وأنهم لا محالة قاتلوه إن ظفروا به ، فدخل  
السكوفة ، واستأمن امرأة من أهلها فأمنته . وهنا ندع ابن قيس  
نفسه يحدثنا عن قصته معنا على ما جاء بالاغانى فى إحدى روايته .  
قال : « فأقمت عندها سنة تروح وتغدو على بما أحتاج إليه ،  
ولا تسألنى عن حالى ولا نسبى ؛ فيينا أنا بعد سنة مشرف من جناح  
إلى الطريق — إذا ينادى عبد الملك ينادى ببراءة الذمة بمن أصبت  
عنده ، فأعلنت المرأة أنى راحل ، فقالت : لا يرو عنك ما سمعت ،  
فإن هذا نداء شائع منذ زلت بنا ، فإن أردت المقام فى الرحب  
والسعة ، وإن أردت الانصراف أعلتني ، فقلت لها : لا بد لي  
من الانصراف فلما كان الليل قدمت إلى راحلة عليها جميع ما أحتاج  
إليه فى سفرى ، فقلت لها : من أنت — جعلت فداك — لا كافك ؟  
قالت : ما فعلت هذا لتكافئني ، فانصرفت ، ولا والله ما عرفت إلا  
أنى سمعتها تدعى باسمها كثيرة ، فذكرتها فى شعرى . » (١)

ولعل الشاعر وقد عرف اسمها ومحلها لم ينس أن يسأل عنها ،  
ويعرف نسبها وكثيرا من أحوالها ؛ فقد ذكر فى بعض شعره فيها  
أنها أنصارية من الخزرج :



ذكرتني حلف النبي وقد تعلم حلفي وحلفها الأنصار  
لم أخنها فتطلب الوتر مني عند ذي الذحل تطلب الأوتار  
وقال :

لججت بحبك أهل العراق ولولا كثرة لم تلجج  
فلت كثرة لم ألقها كثرة أخت بني الخزرج  
وما كالتنا ولكنها جلت فلفة القمر الأبلج  
وقد لهج بذكر اسمها في خمسة مواطن من شعره ، وترك لنا في  
كل موطن خطرات عنها ولحاح لحال من أحوالها . ونستطيع  
من جملة هذه الخطرات واللحاح أن نخلص بصورة لها بحجة ،  
لكنها لا تخلو من إحاطة وشمول .

فهي في شخصها قسيمة معجبة ، سوية الخلق ، صحيحة البدن ،  
بيضاض يخالط بياضها صفرة ، حوراء العينين ، سابعة الشعر ، ريا  
العود ، لا طويلة فارعة ، ولا قصيرة مفتحة ، ولكن ربعة  
بين ذلك .

ظننت لتحزنتنا كثيره ولقد تكون لنا أميره  
أيام تلك كأنها حوراء من بقر غريرة<sup>(١)</sup>  
شبت أمام لداتها ييضاء سابعة الغديره  
رياً الزوادف غادة بين الطويلة والقصيره

(١) غريرة : شاة لاجريرة عندها .

حلت فلاليج السوا دوحل أهلى بالجزيره<sup>(١)</sup>  
 قذفت بها غُرب النوى فعسى تكون لنا مريره<sup>(٢)</sup>  
 صفراء كالسَّيرام لم تشمطِ عذوبتها بِبحورة<sup>(٣)</sup>  
 وهى فى مالها ثرية ذات مال كثير ، وفى عيشها حضرية منعمة  
 من حضريات منعمات ، ما عانين شظف البادية ، ولا عاجلن عملا  
 من أعمال البدويات هناك . قال :

شب بالعال من كثيرة نار  
 شوقتنا وأين منا المزار<sup>(٤)</sup>  
 أوقدتها بالمسك والعنبر الرط  
 ب فتاة قد ضاق عنها الازار  
 تتقى بالحرير من وهج الشم  
 س وخز العراق والاسرار  
 بعقير الروى منها محل  
 ولها بالكُوفيتين ديار<sup>(٥)</sup>

---

(١) فلاليج السوا: قراء، الواحدة فلوجة.

(٢) مريرة : عزيمة رجيّة .

(٣) السَّيرام: الذهب الخالص. تشمط : تخالط بحورة: مرارة .

(٤) المال: الأنبار .

(٥) الكوفة: مكان دون الأنبار

وقال :

من نسوة كالبَيْض في الـ أَدْحَى بِالذَّمِّ مَثَ الْمَطِيرَةِ (١)  
 لم يصطلين غَضَى ولم يضربن للهِم الحَظِيرَةِ (٢)  
 وهى فى سلوكها مصونة محتشمة ، عاشرها الشاعر عاما أو  
 أكثر من عام فى منزل واحد لا يشركهما فيه غير ابنتها على ما جاء  
 فى الرواية الأخرى لقصة مقامه عندها ، فما قصبت ، ولا قاسمته الحب :  
 عاد له من كثرة الطربُ فعينه بالدموع تنسكب  
 كوفية نازح محلتها لأُمم دارها ولا سَقَب (٣)  
 والله ما إن ضبت إلى ولا يُعلم بينى وبينها سبب  
 إلا الذى أورثت كثرة فى الـ قلب وللحب سورة عجب  
 انطلق ابن قيس يريد مكة ، فجاءها ليلا ، ولما دخل على أهله  
 بكوا وولولوا ؛ وأخبروه أن السلطان جاد فى طلبه لا يكاد يسكت  
 عنه ، فأقام فيهم ليلته حتى السحر ثم خرج إلى المدينة ، فبلغها عند  
 المساء ، فقصده إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ودخل عليه  
 متلما يحذر أن يعرفه الناس ، فجلس مع أصحابه ؛ وجعل يتعاجم  
 فى كلامه . ولما انصرف الناس كشف له عن وجهه ، فقال : ابن  
 قيس ؟ قال الشاعر فقلت : ابن قيس ، جئت عائداً بك . قال :

(١) الأَدْحَى : مبيض النعام فى الرمل . الذَّمِّ : المكان اللين ذو الرمل .

(٢) الهم : أولاد البقر والماعز والضأن .

(٣) أمم : سقب : قريب .

وبحك ! ما أجدهم في طلبك ، وأحرصهم على الظفر بك ، ولكنني سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فهي زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرق شيء عليها . فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم لي حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات . فقالت : لا تستثن علي شيئاً فنفع بيده فأصاب خدها . فوضعت يدها على خدها . فقال لها : يا بني أرفعي يدك ، فقد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات . فقالت : إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه . فقد كتب إلى أبي يسألني أن أسألك ذلك . قال : فهو آمن . فريه أن يحضر مجلسي العشية <sup>(١)</sup>

وهذه القصة جرم ما في بعض أجزائها من الصنعة تدل على أن الخليفة لم يرد شفاعة أم البنين في ابن قيس الرقيات .

وما نظن أن أم البنين كانت تجهل ابن قيس ، ولا أنها كانت في الاهتمام بأمره تحتاج إلى وصاة أبيها به . وهي حقيقة أن تذكره إذا ذكر لها ، وأن تشفق عليه حين تعلم مقامه من الخليفة ، فإن له معها لشأناً يبعد أن تنساه أو أن تنسك من أمره شيئاً .

لقد شبب بها في خمس قصائد ومقطعات من شعره . وكان فيها كلها لبقا كيسا ، بل رفيقا متلطفا ، كأنما كان يحاذر أن يجرها ويشير سخطها عليه ، مع كراهته لأهلها وسوء رأيه فيهم .

كان همه في وصفها أن يبرز محاسنها . ويدل على مواطن الفتنة منها ، وأن يجهر بإعجابه بها . وشوقه إليها . ولكن في غير سخر ولا إسفاف . وكان همه في القصص عنها أن يروى الوقائع ويصور الخواطر . ولكن دون إغشاش ولا مجاهرة بفسوق كقوله :

أم البنين سلبتني حلى	وقلتني فتحملني إثمي
وتركتني أدعو الطبيب وما	لطبييكم بالداء من علم
يا أم البنين ألم	تخشي عليك عواقب الاثم
لله درك في ابن عمك إذ	زودته سقبا على سقم
ونزكته يمشي وليس له	عقل يعيش به مع الحزم
جنية الأعلى وأسفلها	وحل مؤزره من اللحم
وبوجهها ماء الشباب ولم	تقبل بملعون ولا جهم
لم تدر ما ندّه الجمال ولم	تربق بربق أول البهم <sup>(١)</sup>

وكقوله يصف ليلة عابثة ، يزعم أنه قضائها معها ؛ فاستمتع بها واستمتعت به ، ولكن في النوم لا في اليقظة ، وفي دنيا الأحلام لا دنيا الواقع والحس :

( ١ ) ند ، الجمال : زجرها . ترقب البهم : فيحذر رءوسها في الرقب وهو حبل فيه عدة عرى يشدها البهم

ألا هزئت بنا قرشي (م) ة يهتز موكبها  
 رأت بي شية في الرأ س منى ما أغيبها  
 فقالت : أبن قيس ذا؟ وغير الشيب يعجبها  
 رأيتي قد مضى منى وغصّات صواحبها  
 ثم قال :

فدع هذا، ولكن حا جة قد كنت أطلبها  
 إلى أم البنين متى يُقر بها مقربها  
 أتتني في المنام فقلا ت هذا حين أعقبها  
 فلما أن فرحت بها ومال على أعذبها  
 شربت بريقها حتى نهلت وبث أشربها  
 وبث ضجيجها جذلا ن تعجبي وأعجبها  
 وأضحكها وأبكىها وألبسها وأسلبها  
 أعالجها فتصرعني فأرضها وأغضبها  
 فكانت ليلة في النور م نسمرها ونلعبها  
 فأيقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها

ومثل هذا الغزل جدير ألا يسخط المرأة في ضميرها إذا هو  
 أسخطها في ظاهر الأمر ؛ بل لعله أن يعجبها ويصادف هوى نفسها  
 لأن فيه إرضاء لطبيعة الآثي . ومجاوبة لنوازع التيه والإدلال فيها  
 حين تغريها بهما الملاحاة والفتون .

ولا ندرى أكان عبد الله بن جعفر يعرف ذلك ، ويقصد إلى استغلاله والإفادة منه أم لا ؟ ولكن الذى لا شك فيه أنه كان فى اختيار أم البنين لهذه المهمة موقفا كل التوفيق ؛ فإكان يقدر عليها وينجح فيها غيرها ؛ لمكانها من عبد الملك ، وسابقة ابن قيس إليها بما قال فيها من غزل معجب رقيق .

فقد كان حنق القوم عليه شديدا ، ورغبتهم فى الانتقام منه ملححة دائمة : لا يصيبها وهن ولا انقطاع . لم يكفهم أن يتسموا أخباره ، ويترقبوا ظهوره ، فوكلوا بأهله من يرهقهم بكثرة الاستخبار والالحاف فى السؤال ، وأطلقوا المتنادين يصيحون فى الناس كل يوم عاما أو يزيد : أن قد برئت الذمة بمن يكون ابن قيس عنده ؛ تجنبيا فى الاتهام ، وإسرافا فى العقوبة والمواخذة .

فالذى يتصدى للشفاعة فيه ، والتماس الأمان له — إنما يتصدى لأمر جسيم ، يشبه أن يكون من الأمور المتصلة بأمن الدولة وضمنان السلامة لها واستقرار الأحوال فيها . فلم يكن ابن جعفر للشفاعة فيه كفتا ، ولا له بها طاقة . وهو حين لجأ فيه إلى أم البنين وإلى أبيها يستعينه عليها — إنما يقدر الأمر حق قدره ، وينزله منزله من الخطر ، ويحتال له بحيلته التى لا جدوى فى سواها ولا غناء .

وفى هذا كله ولا ريب — دلالة إن تكن بحجة فهى قوية

بليغة ، تعبر عن مبلغ ما عاد على الزيريين منه من ربح ، ومبلغ ما حاق منه بالأمويين من خسران .

ويقصّ صاحب الأغانى نبأ هذه الشفاعة في رواية أخرى ، يعيننا منها قوله : قال ابن قيس لابن جعفر : أسأل أمير المؤمنين في أمرى ؛ قال نعم ، فإذا دخلت إليه معى ودعا بالطعام ، فكل أكلا فاحشا . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ؛ فلما قدم الطعام جعل يسئ الأكل ؛ فقال عبد الملك لابن جعفر : من هذا ؟ فقال : هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقا إن استبقى وإن قتل كان أكذب الناس ؛ قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يقول :

مانقموا من بنى أمية إلا ( م ) أنهم يحلبون إن غضبوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبه فيما مدحكم به ؛ قال : فهو آمن ، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال : ولم وقد وهبته لى ؟ فأحب أن تهب لى عطاءه أيضا كما وهبت لى دمه وعفوت لى عن ذنبه ؛ قال : قد فعلت . (١)

ويقصر ابن قتيبة في الشعر والشعراء على هذه الرواية ، ولكنه يرويها في إيجاز ، ومع بعض تغيير في العبارة ، ثم يذكر أن عبد الملك لم يقبل أن يأخذ ابن قيس مع المسلمين عطاء (٢) .

( ١ ) الأغانى : ٥ : ٨١ ، ٨٢

( ٢ ) الشعر والشعراء : ٢١٢



ولا أدري لماذا لم يشأ ابن جعفر أن يقدم صاحبه إلى الخليفة بالقول ، مع أنه الوسيلة ليس أقرب منها ، ولا أحق بها في هذا المقام

كذلك لا أدري لماذا أثر له أن يكون تكلف الشره وإخاش الأكل هو العمل الذى ينبغى أن يأخذ به ليلفت نظر الخليفة إليه مع أن الشره من أقبح العيوب ، وأدناها على سقوط الهمة وقلة الغناء ، وأجلها للزراية والإنكار . وجدير بمن ابتلى به أن يخفيه ويتكلف خلافه على الأقل مع الناس ، فكيف به فى حضرة خليفة عظيم ، ومن رجل مغضوب عليه ، أهدر الخليفة دمه ، وأبرأ الذمة ممن يؤويه ؟

سؤالان لا نستطيع دفعهما ، ولا نجد لهما جواباً مقنعاً ، ولا نجد فى النفس تبعاً لذلك أو نتيجة له ثقة بهذه الرواية ولا اطمئناناً . على أن الغاية التى تنتهى إليها من هاتين الروایتين واحدة على كل حال : أن الخليفة قد رضى عن ابن قيس ، وقبل الشفاعة فيه ، وأذن له أن يدخل مجلسه ، ويقول ما يريد .

« فحضر ابن قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك فأخبر الإذن ، ثم أذن للناس ، وآخر إذن ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبد الملك : يا أهل الشام ، أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، فقال : هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء  
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلية العذراء؟<sup>(١)</sup>  
فقالوا : يا أمير المؤمنين اسقنا دم هذا المنافق . قال : الآن  
وقد أمنتہ وصار في منزلي وعلى بساطي ؟ قد أخرت الإذن له  
لتقتلوه فلم تفعلوا ،<sup>(٢)</sup>

ولا ندرى كيف يمكن أن يقول عبد الملك مثل هذه القولة  
الآخيرة ، التي لا تنطوي على شيء من الحزم والحكمة ، ولا تدل  
على شيء من الاعتزاز بالسلطان ؟

وأى حزم أو حكمة في أن يدعو الخليفة رعيته إلى نقض  
حكم أبرمه ومخالفة أمر أمضاه ؟ بل أى حزم أو حكمة في أن ينتظر  
من رعيته أن تجرى معه على سنن العصاة المخالفين ، فتخفر بذمته ،  
وتنقض عهده ، مع أنه لا عصيان هناك ولا خلاف ؟

وأى اعتزاز بالسلطان في أن يجهر الخليفة في أحد من رعيته  
بأمر وهو يضمن خلافه ولو كان أمراً ذا صولة وشأن خطير ؟  
فكيف بابن قيس حين يجيئه طائعا مستسلما ، لا حول له ولا قوة  
إلا بشفاعة الشافعين إليه من خاصته وذوى الكرامة والخطر لديه ؟

(١) الخدام : الخلائيل ، واحدهما خدمة بالتحريك . وهي في نية خدامها ، مكانه  
قال : وتبدى عن خدامها العقيلة .

(٢) الأغاني : ٥ : ٧٨

ومهما يكن الواقع فقد استأذن الشاعر الخليفة أن ينشده مدحه فيه ، فأذن له ، فأشدد قصيدته التي مطالعها :

عادله من كثرة الطرب فعينه بالدموع تنسكب  
ويظهر أن الخليفة لم يسمع من الشاعر كل ما كان يحب أن يسمع منه في هذا المقام ، إن لم يكن قد سمع ما لم يكن يحب .

فهو إذ أبى أن يقر بذنبه ، ويعتذر منه — لم يقل في الخليفة مثل ما كان يقول في مدح أعدائه ، ولم يحمد دولته بمثل ما حمده دولتهم . بل لعله لم يوفق فضلا عن ذلك في أحاديث الهوى والذكريات التي افترض بها القصيدة . فقد تخين كثيرة موضوعا لنفسيه وحديث غرامه . وهي السيدة التي آوته ، وحالت بين السلطان وبينه ، وإنها لتسمع كل يوم نداء المنادى ببراءة الزمة عن يؤويه .

ثم هو إذ خلص من الحديث عن هذا الماضي الذي لا طيب فيه ، ولا كياسة في عرض شيء من أحداثه على هذا النحو — لم يعد إلى الخليفة في مقامه المشهود ، فيترضاها ، ويتانس مودته وعطفه ولكنه تابع الرجوع إلى الوراء ، ومضى مرحلة أخرى في الماضي الثقيل ، فراح يمدح يثرب ويحن إلى طيب عيشها ولذاتة الإقامة فيها . ولكن متى ؟ أفي عهد الخليفة وإبان دولته ؟ أم في عهد السابقين من أهله وإبان دولتهم ؟ هيات فما ينبغي في عهده وعهدهم

أن يستطاب عيش أو تحمد إقامة في بلد من بلاد الله . إنما كان ذلك وقريش متفقة ، والشمل مجتمع ، يوم لا أمويون هناك ولا غير أمويين .

يا حبذا يثرب<sup>١</sup> ولذتها من قبل أن يهلكوا ويحتربوا  
وقبل أن يخرج الذين لهم فيها السناء العظيم والحسب  
بقت عليهم بها عشيرتهم فعوجلوا بالجزاء واطلبوا  
جميل أن يعرف الشاعر فضل كثيرة عليه ، وأن يحزبها به جهد  
ما يستطيع ، وجميل أيضا أن يثنى خيرا على عهد اجتماع العرب ،  
وأن يستطاب الحياة في ظل هذا الاجتماع ، وأجل من هذين أن  
يضع كليهما بالموضع الذي يطلبه ويليق به . وكلاهما في هذا المقام  
غير مطلوب ولا لائق .

فالقادر المتمكن إذا هاجه الغيظ ، وأضراره الشر بالانتقام  
يكون حين الإعتاب مرهف الحس ، يقظ الملاحظة ، سريعا إلى  
الارتباب وسوء الظن . وربما مال بالنكلام عن قصده ، وأوله  
بما لا يحتمل من أوجه التأويل . وعبد الملك نقادة أريب ، وجبار  
متسلط ، شديد السورة ، قسوى الشكيمة . فإن قيس حقيق أن  
يتمثل له في قصيدته هذه ما كرا مدهانا ، هوأه في الحقيقة مع الماضي  
فهو يتشبث به ، ويحن إليه ، ويخلص له بمقدار ما يبغض الحاضر  
ويغنيق بأهله ، أو بالحري يحب غير الأمويين على التعميم ، ويبغض

الأمويين على التخصيص ، إلا أنه مريض مغلوب ، دالت دولته ،  
وانقضى زمانه ، وتقطعت به الأسباب ؛ فلا مفر له من طاعة  
السلطان القائم وإعلان الولاء له . وإذا كان الناس يصدرون في  
ذلك عن إيمان وإحساس فلا مانع أن يعمل عملهم بالتظاهر والنفاق  
ولكنه تظاهر تمام ونفاق مفضوح ، هيهات أن يخفى عليه أمرهما  
إذا كان فيه على بعض الناس خفاء .

وكأنما كان الشاعر يزيد الخليفة حنقا كلما زاده إنشادا ، وكأنما  
بلغ الحنق غاية مداه ، ونهيات الفرصة لانطلاق بوارده حين وصل  
في الإنشاد إلى قوله :

إن الأغر الذي أبوه أبو ال      حاصى عليه الوقار والحجب  
يعتدل التاج فوق مفرقه      على جبين كأنه الذهب  
فما كاد يسمع قوله هذا حتى صاح به : يا بن قيس تمدحني بالتاج  
كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من ال      له تجلت عن وجهه الظباء  
ملكه ملك عزة ليس فيه      جبروت منه ولا كبرياء  
أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين  
عطاء أبدا .

وهو كلام مغيظ مغلوب ، لم يستطع أن يكظم غيظه ، ولا أن  
يروض نفسه على التى كانت أجمل وأكرم ؛ فيمن عليه بالمال كما

من عليه بالحياة ، بل إنه لم يستطع أن يخفى ندمه على الأمان ، ولا أن يرفق بنفسه فيه حين عز إخفاؤه عليه ، كأنما بدا له في الأمان رأى غير الرأى ؛ فلم يبق منه فاضلة ، يستديم بها الشكر ، ويستحق عليها طيب الذكر ، ولكنه صار ورطة محرجة ، ساقته إليها دوافع التسرع والطيش . وإذا كان لا يجد السبيل إلى الخلاص منها الآن ، ولا يستطيع بسبب ذلك أن يستأنف النظر والتدبير من جديد — فهو على الأقل حقيق ألا يفرض فيها أبقت المصادفة في يده من وسائل المؤاخظة والحرمان . فليمنعه إذا أن يأخذ شيئاً من بيت المال مع أصحاب الأعطيات .

ونعود إلى البيت الذي عابه الخليفة على الشاعر ؛ لنرى ماذا فيه ؟ وماذا في مأخذ الخليفة عليه من سداد ؟

ورأي أن البيت في نفسه سليم لا عيب فيه من ناحيتي الحقيقة والواقع ؛ فهو يريد أن للتاج في رأس الخليفة بجالا ، وأن له عليه اعتدالا ؛ من قدم عهده بيته وطول ملازمته لردوس سلفه ، حتى صار له فيهم سمعة موروثة تنتقل في الأعقاب . ويريد أن للتاج على جبينه المشرق الوضئ رواء وبهجة ؛ بما بينهما من الملاءمة وحسن الاتساق .

ومعنى هذا وذلك أن المالك فيهم عريق غير محدث ، وأنه فيهم أيضا أتم زينة وأجل جمالا .

ولا شيء في ذكر التاج ، ولو أنه ليس بما تعرف العرب به ؛  
فليس في الإسلام عربي وعجمي ولا أسود وأبيض ، ولكن فيه  
أن المؤمنين إخوة ، وأن لمة الدين أقوى من لمة النسب ، وأنها  
لا تعرف الأجناس والأوطان . والأمويون حين خالفوا نهج  
الخلفاء الراشدين ، وجعلوا الخلافة فيهم ميراثا — قد صاروا إلى  
الهرطقة في بعض مظاهرها من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

وينكر عبد الملك أن يمدحه الشاعر بالتاج ؛ فإما تمدح به  
العجم لا العرب . وهو في هذا غير متجن ولا معتسف ، ولكنه  
يستجيب لنزعة المحافظة والعصية لخصائص العرب التي عرف بها  
ساسة الأموية ، وخاصة بناتها المؤسسين .

فأليت من وجهة نظر الخليفة ليس بنى شأن ، بل ليس بما  
يحمل أن يمدح به الخلفاء ، ولا سيما حين يقرن بنظيره بما قال  
الشاعر في مصعب بن الزبير .

ويبدو أن هذا الخلاف لم يكن بين الخليفة والشاعر وحده ،  
ولكن بينه وبين آخرين من الأمراء والشعراء أيضا .

فهذا أيمن بن خزيمة يمدح بشر بن مروان بالتاج ، فلا يهم كإن  
قيس ، ولا يوجز إيجازه ، ولكن يوضح الرأي ، ويبسط القول  
على ما يريد ، فيجعل تاج بشر كتاج بني هرقل نفاسة وعتقا ، ثم  
لا يجد أنه قد أدى واجبه ، وقال في صاحبه كل ما ينبغي أن يقال ؛

فيزيد أنه لا يشبه تاج هذا العربي بتاج هؤلاء الأعاجم على علته ،  
وفي عموم أحواله ، ولكن يشبهه به حين يجلوه أصحاب شأنه  
لأعظم الأعياد وأكرم المناسبات ، فإنما يليق التاج به ، ويأتلف  
مع جبينه أشد ما يكون تألقا وصفاء ، فيلتقيان إذ ذاك على وفاق ،  
وفي جمال اتساق ، وإن كانت لتخالف الوجوه والتيجان على  
رموس الآخرين .

أمير المؤمنين أقم ببشر عمود الحق إن له عمودا  
ودع بشرا يقومهم ويحدث لأهل الزيف إيمانا جديدا  
كأن التاج تاج بني هرقل جلاؤه لأعظم الأيام عيدا  
على ديباج خدّى وجه بشر إذا الألوان خالفت الحدودا

هذا ما قاله أيمن بن خُريم في بشر بن مروان . ولسنا نعلم  
مع ذلك أن بشرا أخذ أيمن بما قال ، أو نقم منه شيئا . ولكن  
الذي نعلمه أنه أعطاه عليه مائة ألف درهم <sup>(١)</sup> .

وعلى كل حال لازى من الإنصاف ولا من أصالة الرأي أن  
يحكم على القصيدة أو الشاعر بالبيت أو البيتين ، بالغا ما بلغا من  
الإصابة والتوفيق ، أو من الخطل والانحراف ؛ فما ينبغي أن يغنى  
البيت الجيد عن القصيدة الرديئة ، ولا أن يحنى البيت الرديء على  
القصيدة الجيدة .



وكان يحسن وقد سمع الخليفة البيت السالف ؛ فثار وغضب -  
أن يذكر معه الذى قبله . وهو :

خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب  
فلعله لو فعل أن يسكن ويرضى .

وليس عبد الملك فى المعروف من حاله بالرجل الذى يجهل  
ذلك أو يخفى عليه من أمره شيء ، لكن ابن قيس وقد جابه  
التوفيق فى مقام الإعتاب على ما قدرنا — قد فعل التى لا يكاد  
يقبل معها صرف ولا عدل عند أصحاب الشكايم القوية والبأس  
الشديد . ويلوح أن ابن قيس مهما يأت بعدها من آيات المدح  
وعرفان المزية والفضل — لا يستطيع أن يغير رأى الخليفة فيه ،  
ولا أن ينزع شيئاً مما بدر إلى نفسه عنه .

ونلاحظ أن البيت الذى عابه الخليفة على الشاعر — لم يكن  
خاتمة القصيدة ، فلا يزال هناك أبيات آخر ، منها :

أحفظهم قومهم بباطلهم حتى إذا حاربوهم حاربوا<sup>(١)</sup>  
تجردوا يضربون باطلهم بالحق حتى تبين الكذب  
وتدل وقائع الحال ونحو الحديث على أن الخليفة حين قطع  
عليه الإنشاد لم يمكنه من العودة إليه ؛ فقد انتقل دون توقف  
ولا إهمال من نقد شعره واستصغار مدحه إلى تقرير مصيره  
والفصل فى قضيته ؛ فقد انتهت المقابلة إذن وانفض الناس أو  
أخذوا فى شأن جديد .

على أن بعض المروى من أنبائه وأشعاره يدل على أن الخليفة قد غير رأيه فيه ونظره إليه ؛ فأصبح يعظم له الهبات ، ويفسح له في الحديث ، ويمنحه من المودة ما لا يكون إلا بين الأضياف المتوازين . روى الأغاني أن عبد الملك قال له يوما : ويحك يا بن قيس ، أما اتقيت الله حين تقول لابن جعفر :

تروو امرأ قد يعلم الله أنه تجود له كف قليل غرارها (١)  
ألا قلت : قد يعلم الناس ، ولم تقل : قد يعلم الله ؟ فقال ابن قيس : قد والله عليه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا ، وعلمه الناس (٢) وهذا كما لا يخفى أشبه بحديث صديقين منه بحديث شاعر وخليفته أو مادم ومدوحه . فالخليفة فيه حفى بالشاعر ، غيور على شعره ، طامع في الاستئثار به أو بنخس ما فيه ؛ فهو لذلك ينقده ، ويحاول أن يوجهه ، ثم هو ينفس على ابن جعفر أن يكون في رأيه وفي شعره بهذه المنزلة من النوال وإسداء المعروف . والشاعر يقف منه موقف الند لندته : لا يتهيبه ، ولا يريد أن يجامله أو يتلطف في خطابه ، فهو يستمسك برأيه في ابن جعفر ، ويدفع عنه ، ويشهد الله والخليفة والناس عليه .

ونرى الشاعر بمدحه بقصيدتين أخريين غير التي مدحه بها لأول مرة : إحداها مينية ، ومطلعا :

(١) قليل غرارها : يريد أن منها المعروف قليل

(٢) الأغاني ٥ : ٨٦

ما هاج من منزل بذى علم بين لوى المنجنون فالتلم  
والأخرى همزية ، ومطلعها :  
أنت ابن معتلج البطاح كئديا فكئدائها (١)  
وما كان الخليفة ليكرر الإذن له في الدخول عليه ومدحه إلا  
وهو راض عنه ، ومنبسط له .  
ومن قوله في القصيدة الميمية ، يذكر أياديه عنده ، ويصف  
تعلقه به وإخلاصه له :

منهم إمام الهدى له نعم عندى وأيد تصوب بالديم  
خليفة يقتدى بسنته فى إرث مجد الثراء والكرم  
ثم قال :  
يربُّ معروفه الجزيل فلا ينقصه بعد قوة الوزم (٢)  
نفسى فداء له وما عظمت من فاجعات الحتوف والسقم  
أما القصيدة الحمزية فيذكر الديوان أن الشاعر قالها فى عبادة  
ابن الزبير حين خرج إليه وافدا . ولا ندرى كيف يكون ذلك  
مع أن الشاعر يقول فيها بعد أبيات من المطلع :  
ولدتك عائشة التى فضلت أروم نساها  
متعطف الأعياص حو ل سررها وفنائها  
والذى ولدته عائشة من الرجلين هو عبد الملك ؛ فأمه عائشة

(١) معتلج البطاح : البطاح الطوية النبات

(٢) ريب : يريد . الوزم : الزيادة .

بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية (١). أما ابن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما . والأعياص المتعطفون حول سريرها كما يقول الشاعر فى البيت الثانى أربعة من أبناء أمية بن عبد شمس الأحد عشر ، وهم : العاص ، وأبو العاص والعيص ، وأبو العيص (٢).

ويشير المرزبانى أيضا إلى أن القصيدة إنما قيلت فى عبد الملك (٣) ومنها فى المدح :

أوفى قريش بالعلـا      فى حكمها وقضائها  
وأشدها آخية      فى عزها وثرائها (٤)  
وأمدتها عند العلا      كفا بجبل رشائها  
ولانت أعلمها بها      وأصحها من دائها  
وأتمها نسا إذا      نسبت إلى آبائها  
وإذا نحن قرنا هذه الحمزية إلى أختها البائية السالفة الذكر بدت الأولى أشبه بأن تكون أولى مدائح الشاعر فى الخليفة .  
فالبائية كما سلف — لا تبدأ بدءا يليق بالمقام ، ولا تقول شيئا مما اعتاد الناس أن يقولوا فيه ، ولا ترتفع بالمدح مع هذا وذاك فى رأى الخليفة على الأقل — إلى مرتبة مدائحه فى الأعداء .

(١) عاصرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٢ : ١٤٧

(٢) الأغاني : ١ : ١٤ (٣) الوشح للمرزبانى : ١٨٦

(٤) آخية : راجلة .

أما الحمزية فتعزف عن التشبيب جملة، وتقصّد إلى المدح منذ البيت الأول؛ فيتمثل الشاعر فيها جادا مشغولا بشأنه الحاضر ومستقبله الخوف عن ماضيه المنصرم وما فيه من ذكريات الفتوة والغرام. وهذا بلا ريب أليق بالمقام، وأدخل في بابه. ثم هو بعد يقر بالهزيمة، ويستسلم للأمر الواقع؛ فيذكر أن الآفاق أخذت عليه، والبلاد ضاقت به؛ فلم يبق له مهرب إلا إلى الخليفة ولا مقام إلا في ظلاله. ثم يعرض نفسه وأولاده عليه، ويجعل مواهبه ومواهبهم رهن مشيئته، ويسأله أن يضمهم إليه، ويوكلهم بما يهيمه من الأمر؛ فيرى فيهم غناء وحسن بلاء في الحروب:

إن البلاد سوى بلا      دك ضاق عرض فضائها  
فاجمع بني إلى بني      لك فأنت خير رعاها (١)  
نُشهدك منا مشهدا      ضنكا على أعدائها  
نحن الفوارس من قرير      شس يوم جدّ لقائها

وإذا صح أن تكون هذه هي أولى قصائد ابن قيس في عبد الملك فإذا أغضب عبد الملك منها، وحمله على أن يمنع الشاعر من أخذ عطائه مع الناس؟ لا يبعد أن يكون مرجع ذلك إلى تخبر الشاعر بنفسه وقومه في القصيدة؛ فطالما أنكر الممدوح الفخر على مادحه، وغضب عليه، وحرمه بسببه؛ لأنه يرى فيه منافسة

له ، وتطاولوا إلى مقامه من غير ذى حق ولا كفاية . فكيف به مع الإغتاب والاعتذار ، وخاصة إلى القادر المتمكن حين يهب الحياة ، وينفر الذنب العظيم ؟ إنه ليبدو حينئذ على أخف صورة ، وفى أيسر حالاته عملا لا كياسة فيه ولا سداد . وما الظن بمن غلب على أمره ، حتى لم يبق له سوى أن يموت على رأيه ، أو يرتد عنه ، ويلتمس الحياة من عدوه مئة موهوبة ، فإذا ظفر بها بعد لآى وإعمال حيلة نسي محنته ، وانقلب بطرا نفورا ؟

واتصل ابن قيس بغبد العزيز ، وبشر ابن مروان أيضا : يمدحهما ، ويغشى مجالسهما ، كما كان يمدح عبد الملك ، ويغشى مجلسه . والكتب التى رجعنا إليها فى ابن قيس لا تذكر صراحة أين اتصل بعبد العزيز بن مروان ، ونعتقد أنه اتصل به فى مصر أيام كان واليا عليها . وآية ذلك قوله من إحدى مدائحه فيه :

لم يصح هذا القواد من طربه وميسله فى الهوى وفى لعبه  
أهلا وسهلا بمن آتاك من الرء (م) قة يسرى إليك فى سخبه (١)  
باتت بحلوان تبغيك كما أرسل أهل الوليد فى طلبه  
فذلما الحب فاشتفيت كما تشفى دماء الملوك من كلبه (٢)

وإذا يكون ابن قيس قد زار مصر فيما زار من البلاد .

(١) الرقة : مدينة على الجانب الأيسر للفرات . السخب : القلائد من قرنفل ونحوه ، ليس فيها لؤلؤ ولا جواهر

(٢) كلبه : الغاء هنا عائدة على الكلب المفهوم من الكلام وإن لم يذكر فيه .

والظاهر أنها أعجبه ، وأثارت شاعريته ؛ فقد وصف بعض مشاهدها ، وأشار إلى بعض آخر ، وقال فيها على كل حال ما لم يقل مثله ولا قريبا منه في أي قطر من الأقطار التي زارها :

ففي القصيدة التي روينا بعض أبياتها أنفا يمتدح حلوان مقر  
الأمير ، ويذكر أشجار الفاكة التي كانت تحفل بها يومئذ : من  
كروم ، وتين ، ونخيل . وفي قصيدة أخرى يصف السفن وهي  
تمخر في النيل مصعدة إلى حلوان ، تحمل طرائف البلاد التي فتح  
الله على موسى ابن نصير . وسنرى شعره في هذا وذلك حين  
الحديث عن الوصف في شعره إن شاء الله .

وجملة ما قال ابن قيس في عيد العزيز بن مروان ثلاث قصائد :  
إحداها هذه البائية ، والآخرى ميمية ، والثالثة قافية :  
ومن قوله يمدحه في الميمية :

فجعت بالغر من أمية حا	شي واحدا نجحتي به الظلحا
أعنى ابن ليلى عبد العزيز بيا	بليون تغدو جفانه ردّما (١)
يلتفت الناس حول منبره	إذا عمود البريه انهديا
مجرب الحزم في الأمور وإن	خضت حلوم بأهلها حاجبا

---

(١) بابليون : حسن بناء القوس أيام ملكوا مصر ، وكان العرب يصنعونه قصر  
الفتح ، وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكعبة المعلقة في مصر القديمة . الرّم :  
القمصاع المبتلة تصب جرائها . ويقال : إن عيد العزيز بن مروان كان له ألف جنة تصب  
كل يوم حول داره ، وكانت له مائة جنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر

ينتهب الحمد باليدين كما ناهب فرسان غارة نعام<sup>(١)</sup>  
 أغر أشياخه العصاة بنو أمية المرغمون من رغما<sup>(٢)</sup>  
 أشياخ صدق نموا بمعتلج الـ بطحاء كانوا لقومهم عصما  
 نالوا مواريث من جدودهم فورثوها مروان والحكما  
 أهل الحملات والدسيعة والـ حة نون عند الشدائد البههما<sup>(٣)</sup>  
 اخترت عبد العزيز مرتعبا وافته للبر خير من قسما  
 من البهليل من أمية يز داد إذا ما مدحته كرما  
 أما بشر فليس له من شعره سوى قصيدة واحدة ، مطلعها :

قد أتانا من آل سعدى رسول حبذا ما يقول لى وأقول  
 ويلوح أنه ارتحل إليه لينشد له إياها ، فقد قال فيها يخاطب مطيته :  
 ألحقينى بلاد بشر خلاك الذ (م) م إذ خُليت إليه السيل  
 ملك وجهه طليق إلينا حين تأتبه والعطاء جزيل  
 كلما جاوزت من الأرض ميلا عن ميل لنا وأعرض ميل  
 ولكن لا ندرى إلى أين كانت هذه الرحلة ؟ والمفهوم أنها  
 كانت إما إلى السكوة ، وإما إلى البصرة ؛ فهما المصبران اللذان  
 وليهما بشر لأخيه .

(١) ناهب الغنمية : أخذها

(٢) دغم الشيء : كلم ومنع : كرمه ، وكنت لم يقدر على الاتصاف

(٣) الحملات : الديارات ، القرايات : القسمة : تطلق على الطية الجزرية ،  
 والمائدة الكريمة .



وكان لبعض القدماء وقفة بمطلع هذه القصيدة ، ولهم حوله  
تجاوز وأحاديث ، وأعلن أن لا مانع من رواية أقوالهم فيه ثم  
التعليق عليه في هذا المقام .

روى صاحب الأغاني أن عبد الرحمن بن غزير الزهرى قال :  
أنشدت أبا السائب المخزومى قول ابن قيس الرقيات :

قد أتانا من آل سعدى رسول      حبذا ما يقول لى وأقول  
من فتاة كأنها قرن شمس      ضاق عنها دما لج وحجول  
فقال لى : يا ابن الأمير ، ما تراه كان يقول ونقول ؟ فقلت :

حديثا كما يسرى الندى لو سمعته      شفاك من ادواء كثير وأسفا  
فطرب ، وقال : بأبى أنت وأمى . ما زلت أحبك ، ولقد  
أضعف حبي إياك حين تفهم عنى هذا الفهم .

وروى أيضا عن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان  
ابن عفان أنه قال : أنشد أشعب بن جبير أبى أليات عبيد الله بن  
قيس الرقيات التى يقول فيها :

قد أتانا من آل سعدى رسول      حبذا ما يقول لى وأقول  
فقال أبى : ويحك يا أشعب . ما تراه قال وقالت له ؟ فقال :

حديثا لو ان اللحم يصلى بحره      غريضا لئى أصحابه وهو منضج  
ذكر شوقا ، ووصف توقا ، ووعد ووفى ، والتقى بمزة كلب ،  
فشفى ، واشتفى ، فذلك قوله :

حبذا ليلتي بمِزة كلب      غال عني بها السكوانين غول (١)  
فقال له : إنك لعلامة بهذه الأحوال . قال أجل : بأبي أنت،  
فأسأل عالما عن عليه (٢)

والواقع أن الشاعر في هذا المطلع استطاع أن يثير كثيرا من  
الاهتمام بالحديث الذي جرى بينه وبين رسول الحبيب إليه ؛  
لأنه يشبه مطلع القصة ، أو مطلع الحديث المفصل المبسوط :  
« قد أتانا من آل سعدى رسول ،

فلما أقبل الناس عليه ، وأنصتوا له ، وهم يحسبون أنه سيفضي  
إليهم بصره ، ويرضى رغبتهم في الاطلاع لاذ بالإبهام ، وغنى عن  
التصريح بامتداح الحديث : « حبذا ما يقول لى وأقول ، . فزادهم  
رغبة وتشوقا ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم الحيرة ،  
ولا أن يردوها عن المحاورة والتعليق .

ويظهر أن صلة الشاعر بآل الزبير لم تنقطع بعد زوال دولتهم  
وانقطاعه للأمويين ، فقد روى الأغاني أنه استأذن على حمزة بن  
عبد الله بن الزبير ، فقالت له الجارية : ليس عليه إذن الآن ؛ فقال :  
أما إنه لو علم بمكاني ما اجتعب عني . قد دخلت الجارية على حمزة ،  
فأخبرته ، فقال : ينبغي أن يكون هذا ابن قيس الرقيات . أثبتني له ،

١ : المزة : قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق . بينها وبين دمشق نعلف فرسخ .  
السكوانين : الغلاء من الناس .

( ٢ ) الأغاني : ٥ : ٩٩

فأذنت له ، فرحب به ، وسأله عن حاجته ، وقضاها له ، وأمر بما يصلحه لسفره حتى رقع أخفاف الإبل <sup>(١)</sup> .

على أننا لا نجد في الديوان مدحا لأحد من آل الزبير ، سوى عبد الله ومصعب أخيه .

### ٦ - ابن قيس وعبد الله بن جعفر : <sup>(٢)</sup>

أسلفنا أن ابن قيس استجار عبد الله بن جعفر ، وسأله أن يشفع فيه لدى عبد الملك ؛ ففعل ، ونجحت مسعاته ، وظفر الشاعر بالأمان المنشود . ونزيد هنا أن عبد الله كان من أثر الممدوحين عنده وأحبههم إلى قلبه ؛ لكثرة ما أسدى إليه من صنيع ، وغمره به من معروف . وقد مدحه بمقطعة وثلاث قصائد ، وهو مقدار من المدح لم يقله في أحد سواه ، ومدحه فيه مع ذلك رائق جميل ، يدل على عاطفة متأثرة وعرفان عميق .

والظاهر أن صلته به كانت قديمة ، تسبق التجاه إليه ، وتوسله به إلى الخليفة ، كما يفهم من حديث صاحب الأغاني عن هذه الصلة . قال :

« كان ابن قيس الرقيات منقطعا إلى ابن جعفر ، وكان يصله ، ويقضى عنه دينه ، ثم استأمن له عبد الملك فأمنه ، وحرمه عطاءه ،

( ١ ) المصدر نفسه : ٩٢ بتصرف

( ٢ ) رلد بالخطبة ، وهو أول مولود بها في الاسلام ، وتوفى سنة ٨٠ للهجرة .

فأمره عبد الله أن يقدر لنفسه ما يكفيه أيام حياته ؛ ففعل ذلك ؛  
فأعطاه عبد الله ما سأل ، وعوضه من عطائه أكثر منه ، ثم جاءت  
عبد الله صلة من عبد الملك وابن قيس غائب ؛ فأمر عبد الله خازنه  
نخباً له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء ، فقال  
ابن قيس :

إذا زرت عبد الله نفسى فداؤه

— رجعت بفضل من نداء ونائل

وإن غبت عنه كان للود حافظاً

ولم يك عنى فى المغيّب بغافل

تداركنى عبد الإله وقد بدت

لذى الحقد والشنان منى مقاتلى

فأنقذنى من غمرة الموت بعدما

رأيت حياض الموت جم المناهل

حبائى لما جتته بعطينة

وجارية حسناء ذات خلاخل ،<sup>(١)</sup>

٧ — صفاته :

وزيد بها الخصائص الذاتية والنفسية التى ترمم صورته ، وتميز  
شخصيته بين الشخصيات . وليس لدينا من ذلك إلا قليل ، نعثر

عليه هنا وهناك في أشعاره ، وبين ثنايا أخباره . ومن الخير أن نعرضه على كل حال ؛ فهو يشير إلى جوانب مهمة في الرجل ، وليس يخلو مع ذلك من لذة ومتاع .

والمفهوم أن ابن قيس كان في شخصه معتدل التكوين ، سوى الخلق ، لاحظ له من ضخامة ولا بطن ؛ لأنه كان يؤثر الاضطراب والحركة على الدعة والاستقرار ، ولم يكن يصيب من الطعام والشراب إلا بحساب :

إني لأخلى لها الفراش إذا قصّع في حضن عرسه الفَرْق<sup>(١)</sup>  
من غير بغض لها لدى ولـ كنّ ذاك منى سجية خلق  
لست بمجشامة له كرش يأكل ما استطاع ثم يغتبق  
قد برمت عرسه بمضجعه ودت لو أن العجّول ينطلق<sup>(٢)</sup>  
يظل ينفي الوليد عن عَقَب الـ قدّر قليل الحياء مفسحق<sup>(٣)</sup>  
ليس عسى أن يقال مره أفراس صدق وأينق عُشْق  
وكان في دينه غير مفرط ولا مستهين ، ولسنا نعول في قول ذلك فقط على حديثه عن نفسه حين استخفى في الكوفة ، إذ يقول :  
وقامت لي المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفراش

(١) قصّع في ثوبه : تلفف ، والمثول : لومه . الفرق : الشديد الفزع .

(٢) العجول : السجل

(٣) العقب : جمع عقبة ، وهي شيء من المرق يده مستير القدر حين يردّها .

منسحق : منكسر مثلال .

والماء للوضوء<sup>(١)</sup>، نعم لا نعول على ذلك وحده ؛ فن شأن  
الحن أن تقوم العوج ، وترد عن الزيغ ، وتحمل على الإيمان  
والالتجاء والتماس العون . ولكننا نعول كذلك على قوله وهو في  
أمن وعافية لا يشكو محنة ، ولا يخاف سوءا حين الأيام تسير  
سيرها المألوف ، وأمره إليه يصرفه على ما يريد :

أتقعد في تسكريت لا في عشيرة

شهود ولا السلطان منك قريب

وقد جعلت أبنائنا ترتبى بها

بقتل نزار والحروب حروب

وأنت امرؤ للحزم عندك منزل

والدين والإسلام منك نصيب

فهو يعزم الخروج ، ولكن لا يأنس من نفسه نشاطا له ،  
ولا رغبة فيه ؛ لأنه ألف تسكريت ، واطمأن إلى المقام فيها ؛  
فراح يقنعها بصواب عزمه ، ويثير حماسها له ؛ فذكر فيما ذكر لها  
من أسبابه أنه متدين مسلم ، للدين والإسلام منه نصيب .

بل نعتمد أيضاً على قوله حين المتعة والقصف :

وسلاف مما يعتق حل زاد في طيها ابن عبد كلال

وقال :

حبذا ليلتي بِمِزَّةِ كلب      غال غنى فيها الكوانين غول  
بت أسقى بها وعندي مَصَاد      إنه لي وللكرام خليل<sup>(١)</sup>  
مَقْدَرُ يا أحله الله لنا      س شرابا وما تحل الشَّمول<sup>(٢)</sup>  
فهو حتى في هذه الحال التي يقل فيها التخرج والتماسك ،  
ولا تلتزم القيود والحدود — يتحرى الحلال ، ولا ينسى أن يسمى  
لنا الشراب الذي شربه ، وأن يفرق بينه وبين الأثربة التي  
حرمها الدين .

وهناك بيت يدل في ظاهره على رقة الدين والاستخفاف به ،  
وذلك قوله لأم البنين :

إن تُسَلِّى نُسْلِي . وإن تدعى إل      إسلام لا نخذلك في الشرك  
لكنه في الواقع ليس من هذا في شيء ؛ لأن الأمر بينه وبينها  
معلق على ما يشبه المستحيل ؛ فأم البنين كما هو معلوم — بنت أخي  
الخليفة ، وزوج ابنه وولي عهده . ومثلها لا يظن به أن يغير دينه ،  
ويتبدل الشرك به ، فإذا يكن الدين والغيرة عليه والزيادة عنه في  
بيت الخلافة عن رسول الله ، وصاحب دعوته فأين يكون ؟  
والشاعر نفسه يصف أم البنين قبل هذا البيت بالحلم والنسك  
إذ يقول :

( ١ ) مصاد : رجل من بني عامر

( ٢ ) مقديا : منسوب إلى مقدر . وهي قرية بمصر تنسب إليها الحمر :

ترى لتقتلنا بأسهمها ونزنها بالحلم والنسك<sup>(١)</sup>

على أنه في البيت لا بعدها إن تركت الإسلام — بالاحتذاء والمتابعة ، ولكن بالوفاء وترك الخذلان . والفرق بين الوعدين غير هين ولا قليل . فالأمر إذا لا يعدو أن يكون عبث مغازل ، أو تهالك عاشق متظرف ، يحاول أن يتصبي محبوبه ، ويقع من قلبه بما يصطنع له من أساليب الخضوع والاستسلام .

ومن قبل في هذه القصيدة نفسها يعجب الشاعر كيف لا تكون الخلاقة لأم البنين ؛ فيدين لها الناس بالولاء والطاعة ، ويحملون إليها هي الغنائم والحراج :

قامت تحيى فقلت لها : ويلي عليك وويلي منك  
وكلم أدر مثلك لا يكون له      نخرج العراق ومنبر الملك  
أفتراه في هذا يريد أن يعالن برأيه الحق في خلاقة المسلمين لمن  
تكون ، وهي هي الخلاقة نفسها التي نصر الزبيريين في طلبها ،  
ولقي في سبيل نصرهم ما لقي من عنت ، وتعرض لكل ما تعرض  
له من خطر ؟ أم تراه إنما يريد الاستمالة والخداع ليس غير ؟

ويصمه بعضهم بالجبن ، ويعتدون من جنبه أنه اقترح على عبد الواحد بن أبي سعد حين كان معه في الجزيرة أن يرحلوا إلى

---

(١) نزنها بالحلم . فقه فيها .



الشام ؛ نجاه من عمير بن الحباب أن يسطو بهم ؛ انتقاما لقتيل بني  
ذكوان الذى قتله حرب بن عبد الواحد .

وهذا مقالهم فى ذلك : . . . فألى عمير بن الحباب ألا يدع  
بوادى الاحرار أعظم من رجل يقتله به <sup>(١)</sup> ، فلما بلغ ذلك عبيد الله  
بن قيس وكان جباناً — قال لعبد الواحد : ارحل بنا إلى  
الشام ؛ فإننا ما كولون هاهنا <sup>(٢)</sup> .

فإن تكن هذه هى وحدها ظاهرة الجبن الذى ينسبون إليه ،  
أو تكن ثمة ظواهر أخرى له ، لكن من طرازها — فإن الخلاف  
بينهم وبينه حينئذ لا يكون فى الواقع على تفسير الشجاعة والجبن ،  
بل على تفسير التقحم والالتقاء هم يدخلون الأول فى باب الشجاعة  
والآخر فى باب الجبن ، وهو يذر كلا منهما بموضعه الذى وضعه  
الناس فيه .

فالمعروف أنه لم يكن له ولقومه طاقة بعمير بن الحباب وقومه  
وقد كانت منهم لا من عمير وقومه المباداة بالعدوان . فرأى لهم  
الرحلة ، وأشار بها عليهم ؛ لئلا يصيبهم فى غير حمد ولا نفع  
ما يصيب الباغى الضعيف القليل العدد ، من عدوه الشديد البأس  
الموفور الجمع .

(١) هكذا فى الأصل . والمراد مفهوم على كل حال .

(٢) الديوان : ١٩٢

فلما أن عصوه ، وأغار عليهم عمير في قومه لم يثبتوا له ، ولم يدفعوا عن أنفسهم ؛ فوقع ابن قيس أسيرا ، وسبق إلى منازل أعدائه مجنوبا .

والشاعر بعد هذا يجهر بأنه لا يحب الشر ، ولا يرى التصدي له ، لكن إذا طلبه الشر ، وسعى إليه حتى ينزل بساحته — رجب به ، واضطر إلى منازلته :

بغض إلى الشر حتى إذا أتى

نُفِلَ بدارى قلت للشر : مرجبا

لكي يعلم الأقدام شرى ومأقطى

إذا لم أجد إلا على الشر مركبا <sup>(١)</sup>

ومثلك لا ذمت السفار بأنفه

وأخذ يته غما إذا ما تغضبا <sup>(٢)</sup>

فليست معاطاة الشر في رأيه حرفة محترف أو غر مفتخر ، ولكنها سلاح الضرورة الأخير ؛ فلا ينبغي الالتجاء إليه إلا حيث لا يكون عنه معدى ولا محيص .

على أنه يذكر في غير موطن من الديوان أنه شهد الحروب ،

---

(١) المأقط : المعيق في الحرب ، وموضع القتال .

(٢) لازم : لازم . السفار حديدة أو جلبة توضع على آف البعير .

وكان له فيها مشاركة وبلاء . ومن ذلك قوله :

إن تَرَيْنِي تَغْيِيرَ اللونِ مِنِّي

وعلا الشيبَ مَفرِقِي وَقَدَالِي (١)

فضلال السيوف شيبن رأسي

وِطْعَانِي فِي الحَرْبِ صُهِبَ السَّبَالِ (٢)

ثم هو قد خرج مع مصعب للقاء عبد الملك ، وأبى إلا أن يثبت معه حتى يعرف مصيره ، مع أن الأمير قد أعفاه من صحبته وجهازه لمفارقته ، وأن مصيره كان معروفا لاشك فيه ولا خلاف ؛ فإنما هو مصير القائد يَحْذِلُهُ جنده ، ويتخلى عنه أعوانه ، وهو يتأهب للزحف والنزال .

ولا ندرى كيف يقال بعد كل ذلك عن ابن قيس : إنه كان جبانا ، فما كان للجبين أن يطوع لصاحبه موقفا كوقوفه من مصعب ابن الزبير ، ولا موقفا من مواقف الحرب ؛ فهذا وذاك بما لا يقدم عليه إلا ذو حظ من رباطة الجأش ، والقدرة على امتلاك النفس . وبغاية ما يمكن أن يقال فيه من هذه الناحية أنه كان امرأ هادئا حذرا معتدلا ، يؤثر في علاج الأمور الرفق والأناة وبجانبية الشر ، على العنف والاندفاع والمباداة بالعدوان ، لكن أسمى فهمه ، وخفي وجه الحق من أمره ؛ فظن جبانا ، وما هو به في قليل ولا

---

(١) القَدَالِي : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس ( ٢ ) صُهِبَ السَّبَالِ : الأعداء .

كثير ؛ فليس بين الشجاعة وصفة من الصفات التي أسلفنا نجابة ولا منافاة .

وكان خيرا ألوا عطوفا ، يحب عشيرته ، ويعتز بها ، ويحن إذا فارقها إلى المقام في جوارها ، ويوصى بحفظ مغيب الأهل والبر بهم ورعاية حقوقهم ؛ فهم القوة والسند ، وهم الحماية والعصمة . وقال :

إن قوم الفتى هم الكنز في دنـ  
سياه ، والحال تسرع بالتقليبا .

وقال :

تقول سلى : ألا تنام إذا  
نمنا ؟ فقلت : الهوم والأرق<sup>(١)</sup> .

تمننى ، وأذكرك نصرتنى  
عمى إذا حل جارى الرهق<sup>(٢)</sup>

ياسلم نأى الديار عن بلد الـ  
سوالد ذل ورجها ضيق<sup>(٣)</sup>

وقال :

وقومك لا تجهل عليهم ولا تكن  
بهم هرشا تغتابهم وتقاتل<sup>(٤)</sup>

---

(١) الرق : الظلم (٢) الضيق : ما يضيق الصدر به (٣) الهرش : الجاني .

فإن امرأ في معشر غير قومه  
ضعيف الكلام شخصه متضائل  
إذا شاء لم يبسط لسانا ولا يدا  
ولم تنب عن ذى صفحتك المعابل<sup>(١)</sup>

ولقد آلمته موقعة الحرة ، ونال منه الحزن على قتلاها من  
قومه نيلا شديدا ، وطالما بكاهم وتقجع عليهم . وما قال فيهم  
مرثية يدل مطلعها على أنها قيلت بعد مقتل مصعب . أى بعد تسع  
سنين على الأقل من يوم الحرة . وفيها مع ذلك من حرقة اللوعة  
والجزع المتجدد ما يبكي العيون ، ويهيج الأشجان . وهذا مطلعها :

قالت كثيرة لى : قد كبرت  
وما بك أليوم من داهمه  
ومنها :

يتامى ييكنون آباءهم .  
ولم يُبق دهر لهم سائمة  
وأرملة يعتريها النحيب  
إذا نامت الأعين الناعمة  
تبكى رجال بنى عمها  
وأخوتها وحدها فائمة

---

( ١ ) المعابل : التماس الطوال المراض .

والظاهر أنه كان مجبا للمال ، أو أن مطالبه لديه كانت كثيرة فقد رأينا مصعبا يعطيه مالا حين كان معه في قتال عبد الملك ، ومع ذلك لما مل المقام في السكوة ، وأعلم كثيرة أنه يريد الخروج إلى أهله — جهزته بجهاز السفر ، وملكته عبدا وراحتين ، وأعطت العبد نفقة الطريق ؛ فتقبل كل ذلك ، وسكت عليه .

ولما آمنه عبد الملك ، وأبى أن يعطيه مع أصحاب الأعطيات لم يلبه الظفر بالحياة عن المال ولو إلى حين ؛ ففرع إلى عبد الله ابن جعفر يشكو إليه في هلع ويأس ؛ فيقول : « مانعني أمانى ، تركت حيا كيت لا آخذ مع الناس عطاء أبدا » .

وسأى أنه كان في غزله مجبا واجدا ، يهيم بالمرأة ، وقد يعامر في طلبها ، ولكنه على ذلك لا يبدو ماجنا متفحشا ، ولا خليعا مستهترا ، كبعض الغزلين من شعراء الحاضرة على الخصوص .

ومن جملة الأوصاف التي أسلفنا يمكن أن تتخيل ابن قيس رجلا معتدلا متمسحا . لا هو بالجاد المتشدد ، ولا العايب المستهتر ولكنه العدل بين هذين ، له من كليهما نصيب ، وفي قلبه لكليهما متسع . وليس يضيق بالجمع بينهما ، ولا بمحاولة التوفيق بين هوى النفس وحق الله والناس ، كما يقتضيه العرف ويوصى به الدين .

## ٨- أسرته :

ليس في شعر ابن قيس ولا في المعروف من أخباره أحاديث خاصة عن أسرته ، وكل ما هنالك عنها إلمامات عارضة ، وإشارات مبهمة : لا تغنى في الدراسة والبحث ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من فائدة .

لقد ذكر أبويه في معرض الفخر ؛ فمضى كليهما إلى أصله ، وأشاد بحظته من وفرة العدد ، وزكاه الأرومة :

أثمى لقيس في الذرا      وأبى لعاتكة المسيرة <sup>(١)</sup>  
 بنت العواتك من بني      ذكوان لا عدنى قفيرة <sup>(٢)</sup>  
 في بيتها عدد الرجا      ل وحوها مضر الكبيره  
 وذكر زوجه في قصيدة أنشأها بعد أن أطلق من الأسر ، فقال يتحدث عن عبثها به ، حين رأت الشيب يسبق إلى رأسه ؛ فيبدو الفرق بين شبابها وشيخوخته على أشده من القوة والوضوح ، كأن لم يكن بينهما مناسبة قريبة في السن :

هزئت أن رأت في الشيب عرسى

لا تلومى ذواتي أن تشيبا

(١) المبهمة : المرة التالية للمهر .

(٢) لا عدنى : لا في عدم . والنضج والتغير عن غلظة الشباب إلى الكبر . قفيرة :

قليلة اللحم ، وفي اللسان عن ابن سيدة . والآثى قرة ، وقرة ، ( بكسر القاء وسكونها ) طاليت شاهد لقفيرة أيضا .

ويظهر أنها كانت من قومه، وأن نسبها منه كان غير بعيد ؛ فقد قال في هذه القصيدة أيضا يوجه إليها الخطاب :

فاظنني فالحق بقومك إني لا أرى أن أقيم فيكم غريبا  
فانزلى في بني كنانة تلقى فيهم العز إن دعوت قريبا  
وذكر أخاه عبد الله على ما أسلفنا في قوله :

يَنحى ' بني عبد وإخوتهم حل الهلاك على أقاربه  
وذكر في إحدى قصائده أن له أولاداً ، وأنهم كبروا حتى  
علام الشيب ، فهو لذلك يستحي منهم أن يمضي على سنته من  
المغازلة واللغو :

كبرت فلست من شرط الغواني  
وفارقت الصبا غير الخفاء  
وشاب بنوك فابستحييت منهم  
وأبت إلى العفاقة والحياء

وسمى اثنين منهم في قصيدة أخرى ، ثم توجه إليهم بالوصية  
وإسداء النصيحة ، كأنهما أكبر أولاده ، والقائمان على  
الأمر بعده :

أوصي شريحا إن هلكت ومحصنا  
بعون على الجلي ' وترك المحارم



وكذب عن الجار الملبس حبله  
 بحبلهما وبالحليف المقاسم  
 وإن حارب المولى صارب بحربه  
 وإن سالم المولى عليك فسالم  
 فإنك بين البيض من آل جابر  
 وبين بني شبل وبين العلاقم  
 وقد نلت فرعا من لوى بن غالب  
 دعائم كانت من خيار الدعائم  
 ويروى صاحب الأغاني أنه زوج ثلاثة بنين له بثلاث بنات  
 لأخ له، وزوج ثلاثة من بنى أخ له بثلاث بنات له<sup>(١)</sup>  
 ولسنا نجد في شعره رثاء لزوجته ولا أخيه، ولا لأحد من  
 أولاده وأبويه، كأنه مات قبل زوجه وأولاده، وكأنه لم يشهد  
 موت أخيه وأبويه، أو كأنه شهده وهو صغير .

٩- وفاته :

ذكر الأستاذ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة  
 العربية<sup>(٢)</sup> أن وفاة ابن قيس الرقيات كانت سنة خمس وسبعين ،  
 ولسكنه لم يذكر علام عول في تعيين هذا التاريخ ، ولا من  
 أين أتى به ؟

وهو على كل حال تاريخ زاه بعيد الاحتمال ، فابن قيس دخل مصر كما سبق أيام ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، ووصف فيها وصف من مشاهد سفن النيل وهي ذاهبة إلى حلوان بنقائس بلاد المغرب ، بعد أن فتح الله بها الفتوح على موسى بن نصير . وإنما كان ذلك على ما يقول السكندی سنة إحدى وثمانين .

وهذا نص عبارته : وولى « عبد العزيز بن مروان » موسى بن نصير مولى لحم أمر المغرب كله ، فسار موسى ، ففتح الله عليه الفتوح بها ، وخرج عبد العزيز إلى الاسكندرية خرجته الثالثة سنة إحدى وثمانين ، وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء ، فقال بن قيس الرقيات :

غَدَوَا مِنْ مَدْرَجِ الْكِرْيُو نَ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حَزُّقٌ <sup>(١)</sup>  
الآيات .

فابن قيس على هذا أدرك السنة الحادية والثمانين ولم تكن وفاته كما يقول الأستاذ جرجي زيدان في السنة الخامسة والسبعين ونضيف إلى ذلك أن عبد الله بن جعفر توفي كما جاء في كتاب النجوم الزاهرة <sup>(٢)</sup> في السنة الخامسة عشرة من ولاية عبد العزيز ابن مروان على مصر ، أي سنة ثمانين من الهجرة ، ونضيف أيضاً

---

(١) الرواة وكتاب القضاة : ٥٣ . المدرج : الملك ، وفي رواية السكندی دوج بدل مدرج ، ولم أعر لها على معنى ملام . حرق : جماعات

(٢) النجوم الزاهرة : ١ : ١٧١ ، ١٧٤

أنا لا نجد في ديوان الشاعر رثاء لعبد الله بن جعفر ، ولم يكن عبد  
الله بالذى يهون موته على ابن قيس ، ولا بالذى يسوغ أن ينسى  
أباده عنده ، فيسكت عن رثائه وهو قادر عليه .  
فيلوح أن مانعا لا قبل له به ، ولا حيلة له في دفعه — هو الذى  
منعه من أداء هذا الواجب الذى لا يحصى له عن أدائه ، ولا  
عذر له في تركه .

وقد يكون هذا المانع بعد ما بين الدارين وطول ما يستغرقه  
التواصل بينهما من وقت ، وقد يكون شيئا آخر من عقايل الحياة  
وعلى كل حال ليس يعنيننا أمره كثيرا ، فليكن ما يكون ، ولكن  
الذى يعنيننا أنه على ما يظهر لم يزل قائما ملازما حتى قضى الشاعر  
نحبه ، فلا يبعد أنه وصاحبه قد قضيا في وقتين غير متباعدين من  
أوائل سنة إحدى وثمانين .

## شعره

لم يكن ابن قيس من معترك الحياة العامة واضطراب الأحداث. فيها ، كما يكون المتفرج من ملعب التمثيل : يرى ، ويوازن ، ويحكم من مكان بعيد ، ولا كما تكون المصورة من المناظر التي يراد تصويرها : تنقل الهيئات والأشباح حكاية على الورق ، دون وعي ، ولا تأثر ، ولا تصنع ، ولكنه على ما أسلفنا كان يلبس تلك الحياة ، ويتمرس بأساليبها ، ويخالط السلطان ، ويشارك في التمكن له والقضاء على مناويله بنصيب السياسى الداعية ، يخطب وده ، ويرجى نفعه ، ويتقن سخطه ، ويحسب له حساب بين أصحاب المواهب والكفايات . فأتى له من اطلاع الأسرار والدخائل ومعرفة المصادر والموارد ما لا يتاح مثله لكثير .

ولم يكن بمعزل عن حياة اللعب واللهو ، بل لقد أخذ منها هي أيضاً بنصيب .

فقد واقع الحياة من كلا جانبيها ، ولم يغيب عنه ما تنطوى عليه هنا وهناك . فهو إذ يتحدثنا عن شيء منها ، أو يصور لنا مشهداً من مشاهدنا — إنما يصدر في هذا وذاك عن مشاركة وإحساس وتأثر .

وعسى أن يكون هذا أهم أسباب التجانس ، وقوة المشابهة التي تشيع في شعره ، وتغلب عليه . فهو من حيث تناول له لا نراه يختلف في الروح والسمت ، وإن اختلف بعض الأحيان في الصبغة والزى . وإنما تتخالف الآثار الأدبية في القيمة والجوهر بتخالف الأحاسيس التي تغرى بها ، وتلازم الأديب وهو يعالج إنتاجها ومثل هذه الأحاسيس بالإضافة إليها كتل الجو الذي ينشأ النبات وينجم فيه ، فعلى قدر حفظه من الصحة وحسن الملازمة يكون حظ النبات من القوة والسلامة من العيوب والآفات .

وقد وهب صاحبنا نفسه وشعره للبرأة والسياسة ، هما مه ومنتزل وحيه ، لا يكاد يعمل إلا لهما ، أو يقول لإقهما . ويوشك أن تكون جمهرة شعره إما غزلا وإما سياسة من قريب أو من بعيد . وليس في هذين مآزق تكلف واستكراه ، كتلك التي يكثر أن يدفع إليها الآخرون من المتكلفين .

لحقيق إذا بمن عرف ابن قيس في بعض شعره ألا يلتبس عليه في سائرته ، وألا يجد من العناء في نسبته إليه مثل ما يجد في شعر كثير غيره .

وهذه أربعة نصوص : قصيدتان ومقطعتان ، يختلف الرواة أصحابها ، فنعرضها هنا ، وندرس الخلاف في نسبها ، عسى أن نتيين وجه الحق فيها ، فتسكون بينة لما نقول :

فالقصيد الأولى هي :

ظعن الأمير بأحسن الخاق      وغدا بلِّبك مطلع الشرق  
مرت على قرن يقاد بها      جل أمام برازق زرق<sup>(١)</sup>  
وبدت لنا من تحت كلسها      كالشمس أو كغامة البرق  
ما صبحت بعلا برؤيتها      إلا غدا بكواكب الطلق<sup>(٢)</sup>  
في البيت ذى الحسب الرفيع ومن      أهل التقي والبر والصدق  
قرشية عبق العير بها      عبق العير بعاجة الحق  
شب الياض أمام صفرتها      في رقة الدياج والعق  
فظللت كالمقمور خلقته      هذا الجنون وليس بالعشق<sup>(٣)</sup>  
وتنؤ فتقلها عجيزتها      نهض الضعيف بنوء بالوسق  
رواها الديوان هكذا ، ونسبها إلى ابن قيس ، وروى الأغاني  
خمس آيات منها على ترتيب غير الترتيب ، ومع تغيير قليل في  
الألفاظ ، ونسبها إلى الحارث بن خالد المخزومي ، وذكر أنه قالها  
في عائشة بنت طلحة ، حين تزوجها مصعب بن الزبير ، ورحل بها  
إلى العراق (٤) .

(١) قرن : موضع من طريق مكة ، وجبل يطل على عرفات . البرازق : الفرسان  
ووصفهم بالورقة من الحديد الذي عليهم .

(٢) غدا بكواكب الطلق : يريد نعم واستبشر .

(٣) قره الشيء : سلبه إياه .

(٤) الأغاني : ٣ : ٣١٩ .

ولعل الذى سهل نسبتها إلى الحارث فى رواية الأغاني أنه كان يحب عائشة بنت طلحة ، ويشبب بها ، وأن مصعباً قد تزوجها ، ورحل بها إلى العراق . فإذا قال فى هذه القصيدة إن صاحبته قد طعنت ، وإن الذى طعن بها هو الأمير ، فالتبادر إلى الذهن أن تكون عائشة هى الطعينة ، وأن يكون مصعب هو الأمير الذى طعن بها ؛ لأن المشاكلة واضحة بين القصيدة وواقعة الحال التى قيلت فيها .

والمشاكلة على كل حال لا تستطيع أن تنحل الإنسان ما ليس له ، وخاصة حين يكون الأمر على مثال ما نحن فيه ، فالحارث لم يكن يشبب بعائشة وحدها ، ولكن بها وبغيرها ، وما كانت عائشة إلا واحدة من حباته ، ومكة بلد محجوج ، يسعى الناس إليه من كل جانب ومن كل طبقة ويكثر الأمراء بين وراذه والصادرين عنه ، ويكثر أن يظعن منهم ظاعنون بحسان فائنات يهرن الشعراء ، ويثرنهم للتعرض لهن والتشبيب بهن .

وليست بنا حاجة إلى الاسترسال فى هذا ومثله ؛ ففى فن القصيدة وملاحمها بدل منه وغناء . وهى فى جملتها وتفصيلها تشهد أن القصيدة لابن قيس ، وليست للحارث المخزومى ؛ فإن قيس فيها كدأبه فى قصائد الغزل الوصفى : يقظ الملاحظة ، منهوم الحس رِياً المحبوبة ولون بشرتها وثقل ردفيها ، ثم هو لا ينسى على العهد

به أيضاً أن ينسبها إلى قبيلتها ، ويذكر شرف حسبها ، وخصال الخير التي تمتاز بها عشيرتها بين الناس .

وتخفيف كلمة تنوء في البيت الأخير ليس عملاً خاصاً بها ، ولا قليلاً في نظائرها ، ولكنه كثير شائع الوقوع ، تدفعه إليه شغف شنة أصيلة غالبية ، فيراوح بين حذف الهمزة وإدخال التسهيل عليها . وسنتحدث عنه ، ونوفيه حقه من التمثيل حين الكلام عن خصائص شعره إن شاء الله .

وكلمة برازق في البيت الثاني من الكلمات التي لها عنده حظوة ، ولها في شعره صدى متردد ، ذكرها في قوله :  
وقد ملأت كنانة بين مصر إلى عليا تهامة فالرَّهَاء (١)  
برازيقا تمر مسوّمات وألوية تتول إلى لواء  
وقوله :

كأن بحفّفات الخيل فيه إذا مرت برازيقا فيول (٢)  
ونمط الموسيقى في القصيدة من أحب الأنماط إليه ، وآثرها عنده ، وأشيعها في شعره .

فإن لم تكن القصيدة بعد كل أولئك من شعره حقاً فهي من

---

(١) الرما : مدينة بالجزيرة ، فتحت سنة ١٧ الهجرة .

(٢) بحفّفات : لابسات الجفاف ، جمع تحفاف بالكسر ، لآلة حرب يلبسها الإنسان

والفرس ، اتقاء السلاح .



أقرب الشعر إليه ، وأشبهه به . وإذا لم يكن لنسبتها إليه حجة القطع واليقين ، فإن لها قرائن التأييد والترجيح .

والقصيدة الأخرى هي :

طَرَقَ الخيالُ المعترى      وَهنا فؤادَ العاشقِ  
طيفَ ألمٍ فهاجني      للبين ، أمَّ مشاحقِ  
الآن أبصرت الهدى      وعلا المشيب مَفارقِ  
وتركت أمر غوايتي      وسلكت قصد طرائقي  
ولقد رضيت بعيشنا      إذ نحن بين حدائقِ  
وركائب تهوى بنا      بين الدروب فد ابق<sup>(١)</sup>

رواها الأغاني هكذا في ستة أبيات ثم قال : الشعر للوليد  
ابن يزيد ، ويقال : إنه لابن ربيعة<sup>(٢)</sup>

ويروها الديوان في أحد عشر بيتاً ، وعلى خلاف مع رواية  
الأغاني في بعض الكلمات ، فيزيد بعد البيت الثاني هذه  
الآيات الأربعة :

تفتت من عذب وذى      أشر لقلبك شائق<sup>(٣)</sup>

(١) داجي : قرية على أربعة فراسخ من حلب ، بها قبة سليمان بن عبد الملك بن مروان  
وكان سليمان عسكر بها وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية ، أو تروى الجزية ، فات ،  
ودفن بها .

(٢) الأغاني ٢ : ٣١٧ ، الصلب والهامش

(٣) أشر الأستان : التحريد الذي فيها ، يكون خلقة ومستعملا

كالأفحوان مرآته ومذاقه للذائق (١)  
صباؤه صرف قرقف شيت بنطفة بارق (٢)  
باتت تصفقا الصبا بقرار بين شواهي  
ثم يحتمل بهذا البيت :

ولقد علمت بأنني ميت لقدرة خالقي  
والقصيدة على ما يروى الديوان ، تمثل غزل ابن قيس حين  
فارق الشباب ، وتقدمت به السن . وهو لون من غزله متميز ،  
سيأتي الحديث عنه بمكانه من موضوع « الغزل في شعره » .  
وملامح ابن قيس فيها غير خافية على كل حال ، لكنها تبدو أشد  
وضوحاً ، وأبين دلالة في الآيات التي يزيد بها الديوان .  
فهو على العهد به رشيق الموسيقا ، يقظ الملاحظة ، كاف  
بحاسن الحبيب ، يصفها ، ويحدد أقدارها بالقياس والتشبيه ،  
وصف العارف المتذوق . ولا ينسى أن يسهل همزة ( مرآته ) في  
الآيات التي يزيد بها الديوان أيضاً ، كدأبه في همزات كثير من  
الكلمات . وسيأتي لهذه الظاهرة من ظواهر منطقة مزيد من البيان  
والتمثيل إن شاء الله .

فالديوان إذ يعزو هذه القصيدة لابن قيس تحقيق ألا يتهم

(١) مرآته : مخفف مرآته

(٢) قرقف : بارد .

بالغفلة أو قلة التحرز . وهو إن احتج حاضراً البينة ، وإن اعتذر  
مقبول الاعتذار .

ومن يدرى لعل القصيدة كما رواها الديوان أن تكون مزيجاً  
من مقطعتين : إحداهما للوليد أو ابن ربيعة ، وهي التي رويها  
الأغاني ، والآخرى لابن قيس ، وهي التي تزيد على تلك في  
رواية الديوان .

أما المقطعتان فهذه أولاهما :

ليت شعري أفاح رائحة المسد	لك وما إن إخال بالخيف أنسى
يوم غابت بنو أمية عنى	والبهليل من بنى عبد شمس
حلباء إذا الحلوم استخفت	بوجوه مثل الدنانير ماس
خطباء على المنابر فرسا	ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون صامتين وإن قا	لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
ليلهم والنهار بذل إذا ما	قحط القطر عن شتاء ويابس

رواها الجاحظ . ونسبها قولاً واحداً إلى أبي العباس الأعمى<sup>(١)</sup>  
ورواها الديوان لابن قيس ، وذكر أيضاً أنها تعزى إلى أبي العباس  
الأعمى .

والواقع أن فيها ملامح من ابن قيس ؛ فهو مولع بالطيب  
ونفائس المعدن . يستكثر من ذكرها ، فيكررها ؛ أو يفتن في

إيرادها وتأليف الصور منها ، والمقطعة بعد هذا تدور على معان  
كالتى اعتاد أن يدير عليها سائر مدائحه فى بنى أمية ، من مثل قوله :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا  
وأنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب  
وقوله :

يعتدل التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب  
وقوله :

أهل الخمالات والديعة والـ مفعون عند الشدائد البهـ  
وأما المقطعة الأخرى فهى :

إن النساء إذا يُنهن عن خلق  
فكل ما قيل لا تفعلن مفعول  
وما وعدتك من شر وقين به  
وما وعدن من الخيرات تضليل  
إن النساء كأشجار نبتن معاً  
فيهن مُرٌّ وبعض النبت ما كول

رواها الديوان ، ونسبها إلى ابن قيس ، وذكر أيضا أنها تروى  
لـ يزيد بن الحكم . وما نرى فيها شيئاً من سمات ابن قيس المعروفة ،  
فهى دراسة شعرية لبعض سجايا النساء ؛ ومدى تخالفهن فى المعدن

واللباب ، ولسكنها دراسة حائق مغضب ، لا يخفى سخطه عليهن  
ويأسه منهن ، ولا محل لشيء من هذا في غزل ابن قيس لانه لا يتفق  
مع نظره إلى المرأة ، ولا فهمه لها ، وحظه منها ، فإنما هو مغازل  
مثنوق ، وطلوب متفائل ، لم يصادف في المعروف من غزله ما يثير  
حفيظته على النساء ، ويدفعه إلى الإزراء بهن . فما حاجته إلى الدرس  
والتحقيق ، ثم إلى الذم والانتقاص ، لقد كان أشد ما ينالهن منه  
حين أدركه السكير ، ووضع في رأسه الشيب ، فأنكرنه وأعرضن  
عنه — أن يشكو منهن ، ويدعو عليهن بما يشبه أن يكون إقرار  
عاجز مغلوب ، أو استزادة عابث متهاجن لا مجادة ناظم محروم :

لا بارك الله في الغواني فما يصبحن إلا لهن مُطلب

والمقطعة بعد ذلك تأخذ على نمط من الموسيقى والوزن نادر  
في شعره جدا ، لانكاد نظفر به إلا في مقطعة له أخرى .

وأعتقد أن الضياع عدا على شعره : فذهب بكثير منه كما ذهب  
بكثير من آثار غيره . وربما كان على السياسة لائم في هذا ، بل ربما  
كان لائمها فيه كبيرا وتبعها ثقيلة ، فقد انغمز الرجل فيها من فرعه  
إلى أخمص قدمه ؛ فاتصل بالهاشميين والزييريين والأمويين ؛  
ومدحهم جميعا .

وما من أحد يطلع على ديوانه إلا يرى آثار التحيف والترفيه

ظاهرة متنوعة ، فالمقطعات أكثر عددا من القصائد ، وكثير منها لا يزيد على البيت أو البيتين ، كقوله :  
 إن هذا الليل قد غَسَقَا واشتكت الهم والأرقا  
 وقوله :

معقل القوم من قريش إذا ما  
 فاز بالجهل معشر آخرونا  
 لا يثوبون في العشرة بالسو  
 ء ولا يفسدون ما يصنعونا

ومن المقطعات الأحادية ما لا يستقيم في صياغة ولا رواية إلا مع صلة يتعلق بها ويعتمد عليها مثل قوله :  
 يوم تبدى البيض عن أسوقها  
 وتلف الخيلُ أعراجَ النُعمِ (١)

وبعض القصائد لا يخلو فيه للفرض الأصل الذي بنيت القصيدة له سوى بيتين اثنين أو ثلاثة آيات فقصيدته في مدح عبد الله بن الزبير تتألف من عشرة آيات ، ولكن لم ينل المدح منها غير بيتين . وقصيدته في مدح بشر بن مروان تتألف من تسعة ، وقد نال المدح منها ثلاثة ، لكن أولها في خطاب المطية ؛ أن تبلغه بلاد الممدوح ؛ وخلاها دم .

---

( ١ ) أسوقها : سيقانها . أعراج : قطبان واحدهما عرج كهل

وإذا صح أن يكون الانقطاع أو ضيق النفس أو غيرهما من  
العوارض هو الذى قعد بالشاعر أن يأتى بالقدر الكافى من أبيات  
المدح ، فما أظن أنه كان يرضى لنفسه فى هذه الحال أن يرحل  
بالقصيدتين ، لينشد إحداهما فى مكة ، والأخرى إلى الكوفة أو  
البصرة ، فما فى صنيعه حينئذ شيء من السكياسة وصحة الفهم به  
البراعة وحسن التوصل لإدراك البغية بوسائلها المضمونة النجاح وما  
أظن لو فعل أن الممدوحين كانوا يسكتان عنه ، لا ينقدانه ولا ينكران عليه .  
وبعض القصائد يبدأ بدهاء لا يشعر أنه المطلع الذى استهلت  
القصيدة به يوم قالها الشاعر : مثل قوله يمدح عبد الملك بن مروان :  
أنت ابن معتلج البطاح كُدَيْهَا فَكَدَاتُهَا  
فبعيد أن يكون هذا البيت بتركيبه ، ونظام تأليفه هو مطلع  
القصيدة الذى توجه به الشاعر إلى الخليفة حين أذن له  
فى الإنشاد .

## شعره وعصره

عاش ابن قيس في القرن الأول الهجري ، أى في مرحلة من أعظم مراحل تاريخ الأمة العربية ، وأحفلها بالحوادث ، وأجمعها لأسباب التحول والانتقال .

ففي هذا القرن تكوّنت الدولة ، وتميّزت شخصيتها ، وتباعدت أطرافها . وفيه انقسم المسلمون علويين وأمويين ، وانقسم العلويون شيعة وخوارج ، ثم انقسم هؤلاء وهؤلاء طوائف وفرقا مختلفة . وفيه ظهرت دولة الزبيرين ، واشتد ساعدها ، حتى همت بالأموية وكادت تقضى عليها ، إلى قن وثورات أثارها الخانقون على الدولة ، والطامعون في انتزاع السلطان منها . وفيه حول معاوية نظام الحكم من خلافة تقوم على الشورى ، والتقيّد بأحكام الدين إلى ملك يقوم على الوراثة ، ورعاية مقتضيات السياسة والاستبداد . ولم يكن التغير الذى أصاب الحياة الاجتماعية بأقل من التغير الذى أصاب الحياة السياسية ، فقد كانت العرب في مستهل الإسلام زاهدة متقشفة ، فلما استقرت الحال وبعد العهد بالنبي وخلفائه ، وفيما الغنى في الناس ، وأخذ خلاط الأعاجم يعمل عمله في النفوس بحكم التعاون ومبادلة المنافع — اتجهت الحياة في الأمصار إلى الترف والنعيم ؛ فافتن الناس في المأكل والملبس والمسكن ، واستكثروا



من الغلمان والجواري ، وانبعثت من جديد مجالس السمر والغناء :  
يفشاها الخليون من أهل الجدة والفراغ ، ولا يتأثم منها الكثير  
من العلية وأصحاب السلطان . وكان مدار اللهو في هذا الجانب من  
الحياة على المرأة ، هي مادة السمر وملهمة الشعر ، وعدة العبث .  
ولسنا نغني أن الحياة الإسلامية في الأمصار كانت كلها لهوا  
ولعبا وخلاعة وعبثا ، وإنما نغني أنها لم تبق على العهد بهامن الزهادة  
والتقشف ، ولكنها أخذت تتحول وتبديل على التدرج ، فإذا  
أمور تنشأ ، وأمور تختفي ، وأخرى تتشكل أو تصطبغ بصبغات  
لا عهد للناس بها من قبل .

أما البادية فكان التغير فيها على مقدار صلتها بالأمصار ومبلغ  
قربها منها .

وتبع هذا التغير في الحياة تغير مشابه في العقلية ، بدأ بمدرسة  
القرآن ، وتذوق بلاغته ، والاستماع لأحاديث الرسول ﷺ ،  
والتفقه في الدين واستنباط الكثير من أحكامه ، ونما بالاطلاع  
على أساليب الحضارات القديمة ، ومعرفة ألوان من نظم الحياة  
في أهلها ، وانهى بتهيؤ الناس لأداء نصيهم من خدمة الثقافة ،  
والمشاركة في تنمية تراث الإنسانية من العلوم والفنون .

وأظهر ظواهر هذا التغير في الشعر أمران :

أحدهما تميز الشعر السياسي ، واشتداد قوته لمناصرة الأحزاب  
ونشر الدعوة لها .

والآخر استقلال الغزل ، واستفاضة القول فيه ، وانقسامه إلى مطبوع يصور حال المحب الواجد ، ومصنوع لا يكاد يصور غير الحرص على محاكاة قدامى الشعراء في افتتاح قصائدهم بالنسيب ، ثم انقسام المطبوع إلى بدوى يغلب عليه التصون والعفة ، وحضرى يغلب عليه التحلل والخلاعة .

فإذا الشعراء ثلاث طوائف متمايزة :  
غزلون ، يلتزمون الغزل ، أو يستكثرون منه ، حتى يغلب عليهم ويعرفوا به .

وسياسيون ، ينتمون إلى الأحزاب ، وينصبون أنفسهم دعاة لها ومؤيدين .

وآخرون متفننون ، يقولون في شتى أغراض الشعر ، لا يتعصبون لحزب على حزب ، ولا ينقطعون للغزل أو يستكثرون منه .

فمن أى هؤلاء كان ابن قيس ؟

لقد عده الأستاذ جرجى زيدان من شعراء السياسة <sup>(١)</sup> ، وتابعه على ذلك أصحاب المجمل <sup>(٢)</sup> ، وعده الأستاذ الدكتور طه حسين من شعراء الغزل <sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ١ : ٣٩٢

(٢) المجمل في تاريخ الأدب العربي : ٨٣

(٣) حديث الأربعاء : ١ : ٣٦٦

وهو حقيق أن يعد مع هؤلاء وهؤلاء :

أما السياسة فقد قال فيها ، وعمل لها عمل الرجل الجريء الصريح :  
لا يوارب ، ولا يتردد ، ولا يحجم ، ولا يقف من ميدانها بمنجاة .  
وقد أودى بسببها في نفسه وحرته ، وكان له فيها رأى لعله أن  
يكون وحيداً بين الآراء . وستكلم عنه حين الكلام عن  
شعره السياسي .

وأما الغزل فأهم أغراض فنه ، وأوفرها نصيباً من شعره .  
وكانت له حجاب مذكورات تعلق بهن ، واشتهر ذكره معهن  
حتى أضفن إليه إضافة التميز والاختصاص .

فشعره إذا لا ينبع من الحياة الإلهية الالعبية وحدها ، ولكن  
من الحياة العاملة الجادة أيضاً . وهو إذ يستمد منهما يمضي لوجهه  
في استقامة ويسر ، لا يتوعر ، ولا يلتوى ، ولا يطفئ على الجانبين ؛  
فإذا هو نمط غير شاذ ولا نادر ، تتمثل فيه الجماعة العربية تمثلاً  
مقاربا معتدلاً .

ونستطيع أن نستشرف الحياة العامة لعهد من ثلاث نوافذ  
في شعره :

إحداها تناوح العقلية العربية ، والآخرى تناوح المرأة العربية  
الثرية في عصرها الجديد ، والثالثة تناوح علاقة العرب المسلمين  
بماضيهم والشعور الذي يحتفظون به لذكريات مجده التليد .

فأما النافذة الأولى فنحن واجدوها حيثما نقرأ شعره . وإذا نظرنا منها رأينا العقلية العربية فطرية بادية ، لكنها قد بدأت النمو وأخذت تدرج إلى الكمال : تفكير ساذج قريب ، لكنه بسيل التشكل والتعمق ، وتخيل يسير محدود ، لكنه أيضا بسيل التصنيع وعلى أهبة الانطلاق والتحليق . ولا بأس أن نوردها هنا أمثلة منه . قال :

ألا أيها الضيف الذي يطلب القرى  
وبيتنا ، تحمل ؛ ليس في داره عمرو  
وكان أبو أوفى إذا الضيف نابه  
تشب له نار وتُنضى له قدر  
فيمسى ويضحى الضيف شعبان والقرى  
حميد ويبقى بعده الحمد والذكر  
وقال :

وعارض كالجبال من مضر الـ  
حمرء يشقى ذا العر من جربه <sup>(١)</sup>  
وابنا نزار إذا هما اجتماعا  
لم يتركا هاربا على هربه  
وقال :

---

(١) العارض : السحاب يفترض في الأفق . العر : الجرب .

إني وفي الدهر الجديد      بد عجائب وتجارب  
بُذلت بعد بني ريب      سعة والزمان مُعاقب  
جيران سَوء بينهم      شُطْرَ الزمان عقارب<sup>(١)</sup>  
يستأسدون على الصديق      سق والعدو ثعالب  
وكذلك الأبدال من      ها نازح ومقارب<sup>(٢)</sup>  
والدهر فيه لمن تفك      سر عبرة وعجائب  
إن يستطيعوا يأكلوا      ك وم لديك أقارب  
حاشا رجال فيهم      عن أذى الصديق مجائب

ونجد النافذة الثانية في غزله ، وإذا نظرنا منها رأينا السيدة  
الكريمة المتحضرة خلية مترفة مسرقة ، قد كفيت كل حاجة ،  
وأعفيت من كل تبعة ؛ فشغلك بنفسها ، وانصرفت إلى زيتنها .  
أثقلتها النعمة ، وأوفرتها الدعة ؛ فعظمت جسامتها وامتلاء . جوار  
ووصائف ، وفراش ورياش ، وحلى وحلل ، ومسك وعنبر .  
استمع لقوله :

حتىّ الأختين قد أحمّ الفراق

ودنت رحلة لنا وانطلاق<sup>(٣)</sup>

مجلس واحد نرى العيش فيه

حين نخلو كأننا سُراق

(١) شطر : بعيد ، من قولهم نوى شطر . عقارب : ثعالب .

(٢) الأبدال ، جمع بدل ، وهو الخلف . (٣) أحمّ : قرب .

لا يرانا من البرية إنسا  
 ن، علينا من الصريم رواق<sup>(١)</sup>  
 لكم الله والأمانة لانك  
 نذب فيما نقول والميثاق  
 إنما تيمت فؤادى أخنا  
 ن مَلَوَىٰ عليهما الأطاوق  
 دُرنا غائص من الهند؛ مالُ الشـ  
 ام يحجى إليهما والعراق  
 منهما الشمس أشرقت يوم دَجَن  
 فأضأت بنورها الآفاق<sup>(٢)</sup>  
 وفتاة كالبحر تحنو إليها  
 حين تبدو العيون والأعناق  
 يعجز المطرف السباعى عنها  
 والإزار المفسوف التلُفاق<sup>(٣)</sup>

ولقوله :

ولقد عصيت الناهيا      ت الناشرات جيوبهنه  
 حتى ارعويت إلى الرشا      د وما ارعويت لنسبته

(١) الصريم : الليل

(٢) أضأت : ضاءت

(٣) المطرف : رداء من خر ، مريح فو أعلام - السباعى : الساخ الراقى . المفوف : الرقيق . التلُفاق : التوب الملقوق به ثوب آخر :

ووجدت مسكا خالصا      قد ذُرَّ فوق عيونهنه  
 وإذا تضمخ بالعبىء      سر الوردِ زان وجوهنه  
 يحفّين فى المشى القريب      سب إذا يزرن صد يقهنه  
 وبنات كسرى فى الحرب      سر عوامل يخذ منه  
 متعطفات بالبرو      د على البغال وفرَّ هنه (١)  
 وإذا قعدن على البغا      ل مَلَتْ ظهور بغالهنه

ولقد نراها تخرج للحج ، فلا تعدم قتي عابثا يتصدى لها بالتصبي  
 والمغازلة ؛ عسى أن يقع منها بموقع ؛ فتأذن له بمديث ، أو  
 تعده بلقاء :

مَن عذرى مَن يرضن بمبذو      ل لغيرى على يوم الطوائف ؟  
 وقال :

حيوا حليلة بعلمها سلامه

وعلى الخليل من الخليل ذمامه (٢)

بيضاء كالورق اللجين يزينا

وجه عليه نَصْرَة وقسامه

تلك التى أصفيتها بنصيحى

هل بعد إجهاد الخليل ملامه ؟

(١) متعطفات : مرتديات

(٢) ذمامة : عهد .

وَعَدَتِكَ بِالْبَيْتِ الْمُبَارَكِ أَهْلَهُ

هيات مسكن من تحمل تهامة  
وربما عرضت المرأة البدوية من مكان بعيد ، تتعاطى بعض  
أعمال عيشها النكد ، وتستدر أخلاف رزقها الشحيح :

وَحِسَانٌ مِثْلَ الدِّمَى عِبْشِمِيَا

ت علمين بهجة وحياء  
لا يَسِيعُنَ الْعِيَابُ فِي مَوْسَمِ النَّا  
س إذا طاف بالعياب النساء  
ظاهرات الجمال والسرو ينظر

ن كما ينظر الأراك الظباء (١)

وقال :

وبوجهها ماء الشباب ولم تُقْبَلْ بِمَلْعُونٍ وَلَا بَجْهَمٍ  
لم تدر ما نَدَّهَ الْجَمَالُ وَلَمْ تَرُبُّقِ بِرَبْرِقِ أَوَّلِ الْبَهْمِ  
وقال :

لم يصطلين غضى ولم يضربن للبهم الحظيرة  
وأما النافذة الثالثة فنجدها في الفخر والحماة . ونحن إذ ننظر  
منها نرى عرب الإسلام لم تخلص كلها من حمية الجاهلية الأولى ،  
ولم تقطع صلتها بماضيها كله ، فما يزال فيها من يتعاطى العدوان ،

(١) السرو : الغرف والتبل



ويُفخر بالاستباحة والثَّار ، وما يزال فيها من يعدد محامد الجاهلية ،  
ويباهي بحظه منها . قال :

إن شِيا من عامر بن لوى

وفُسِّوا منهم رفاق النِّعال<sup>(١)</sup>

لم يناموا إذ نام قوم عن الوتد

بحرك ، فخر عمر فالتَّحال<sup>(٢)</sup>

علَّقوا أرسُن الجيناد ومروا

جانبيها بشاحجات البغال<sup>(٣)</sup>

إلى أن قال :

فقد وناهن في غَبَش اللَّب

ل رقاكا كأنهن المَعَالِ<sup>(٤)</sup>

نبتغى دمنة لنا في بني العَلَا

ت نسقى سِجالها بمِجال<sup>(٥)</sup>

أدرَك الذحلَ فتية من بني عم

ر وبصبر النفوس بين العوالى

لورأتني ابنة الشَّويعم ليلي

إذ نلُف الأبطال بالأبطال

(١) قترا : قتيانا (٢) عرعر والبغال : موضعان ، ومثلها حرك على ما يظهر

(٣) جنبه : قاده إلى جنبه . شج البتل : صوت . (٤) المعالي : السام يفتل بها

أى يرمى إلى أقصى القاية (٥) الدمنة : الخلد القديم . بنو العلات : بنو أمهات شتى  
من رجل واحد .

حين ننعى أخاك بالأسل السَّم  
 ر وشعثِ كأنهن السَّعالِ  
 لشفى نفسك انتقام بنى عم  
 لك حين الدماء كالجرِيال (١)  
 طُلَّ من طل في الحروب ولم يُط  
 لعل على ولا دماء الموالِ  
 وبني مالك بن حسل ثأرنا  
 غيرَ نخر وغير انتحال  
 وأصبنا بعد الرجال رجالا  
 وحوينا الأموال بالأموال  
 وقال :

ورجال لو شئت سميتهم مِثْـ  
 ل ، ومنا القضاة والعلماء  
 منهم ذو الندى سهيل بن عمرو  
 عصمة الجار حين جُبَّ الوفاء (٢)  
 لى أن قال :

---

(١) الجريال : يطلق على حمرة الذهب ، وسلاقة العصف  
 (٢) سهيل بن عمرو ، من بني عامر بن لؤى ، وقائب قريش في صلح الحديبية ،  
 أسلم عام الفتح ، وتوفى في خلافة أبي بكر ، أو أوائل خلافة عمر .

والذى إن أشار نحوك لَطًا

تبع اللطم نائل وعطاء (١)

والبحور التى تُعد إذا لنا

س لهم جاهلية عياء

يُطعمون السديف من قَحَد الشَّ

ول مَنْ أوتَ إليهم البطحاء (٢)

في جفان كأنهن جساب

مُتَرَعَاتٍ كما تفيض النِّهَاء (٣)

وهم المحتبون في حلل اليُم

نة فيهم سماحة وبهاء (٤)

أقسموا لا زال نُطعم ما هب

س رياح الشمال والأصبا

ونرى العربى المسلم لا يزال يتعصب لقييلته ، ويزهو بالانتماء

إليها ، ويرى حقا عليه أن ينصرها ، ويدافع عنها :

نحن الصريح إذا قريب ش قام منها النامب

من سرها وأرومها إذ لآروم مراتب

(١) يريد عبد الله بن جدعان ، وكان كبر لحجر عليه أمله ، فكان إذا جاءه الرجل يسأله قال : سأعطيك ؛ فلا ترضى ، حتى يفتدى منك ، أو تطلقى .

(٢) التمدد : أصول السنام . القول : التوق ، معنى عليها من حملها أو وضعها سبعة .

أشهر ؛ جف لبنها (٣) الجوان : الحياض ، يجي فيها الماء للابل ، أى يجمع .

الثبا : الغدران (٤) العينة : برد ينى .

وقال :

إني امرؤ لا يُزدرى      دفعي عن أعراض العشيره  
في بيتها حسبا ومن      أخلاق صالحها سريره  
أنفي القراقير الصغار      وأحطم الفلك الكبيره<sup>(١)</sup>

وثمة مشاهد أخرى من الحياة يمكن أن نطل عليها من شعر ابن قيس ، لكننا أغفلنا ذكرها هنا إما لأن غير هذا المكان أولى بها ؛ فتركناها له ، وإما لأنها ليست بذات بال ؛ فتركناها جملة ، وأخلينا منها كل مكان . ولسنا نزعم أن ابن قيس في هذا الذي ذكرنا وحيد ، ولا أنه بلغ فيه ما لم يبلغ شاعر آخر ، فكل شاعر نصيب من التعبير عن عصره وتصوير الحياة فيه ، أراد أم لم يرد ، ولكن نصيب ابن قيس من ذلك جدير بالتسجيل ، فشعره كما سلف متشعب في منبعه وبجراه ، وليس في نوعه شاذا ولا نادرا .

---

(١) القراقير : السفن . والواحد كمنفور .

## خصائص شعره

لكل شاعر في فنه خصائص تميزه وتدل عليه ، كما أن لكل إنسان في شخصيته خصائص تميزه وتدل عليه . ومن الخصائص مشترك لا يتفرد به صاحبه ، ومنها مفرد لا يجاوز صاحبه ، أو لا يكاد يجاوزه . واشتراك الخصائص لا يسلبها حق الدلالة ، والتمييز ما بقيت في نطاقها المرسوم ، وإلا عدت من خصائص الجماعة أو الجنس الذي تشيع فيه ، غير أن دلالة الخصائص المشتركة لا تكون طبعا للتعين والتحديد ، بل للإيضاح والتخصيص . والخصائص المفردة التي ربما تكون إلى جانبها هي التي تتولى معها أو تتولى عنها إزالة الشبوح واللبس ، على حسب مبلغها من العدد ، ومبلغها من خصوصية التعين . والخصائص المفردة هي التي تدل على مدى استقلال صاحبها ، ومدى مفارقتها للجماعة التي يعزى إليها أو الجنس الذي هو أحد من آحاده . أما الخصائص المشتركة فتدل على مدى موافقة الفرد للجماعة أو الجنس ، ومدى مطاوعته لعوامل البيئة وأحوال المعيشة التي تحيط به .

وإذا تناولنا الخصائص الفنية في شعر ابن قيس من هذه الناحية بهذه المعايير — نجدناها على الإجمال الصورة الطبيعية المطابقة

لمقتضيات شخصيته ، وظروف عصره وبيئته ، لاشذوذ ولا تبرد ولا خلاف . هذه الخصائص في العبارة واللفظ ، وفي المعنى والخيال وفي الوزن والقافية لا تكاد تجد عن المعهود من خصائص الشاعر الغزل ، الرقيق الطبع ، الخفيف الروح ، ينشأ في حضر البادية ، ثم يتاح له التطواف في الأمصار ، إذ العهد بالجاهلية قريب ، وإذ لا يزال كتاب الله الكريم وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم يخلبان الألباب ، ولا يزال إليهما المرجع في التهذيب والهداية والتثقيف .

فكانت عبارته لينة يسيرة التأليف ، ليس فيها تعقيد ولا التواء . وليس فيها شيء من أعمال الضرورة وضيق الحيلة : فلا تقديم هناك ولا تأخير ، ولا تراكب ولا زحام ، ولا حشو ولا إقحام ، وإنما هناك تجانس المفردات ، واستواء النسيج ، واتساق النظم . وألفاظه سهلة خفيفة الوقع ، لا فيها غرابة ولا خشونة . ويشيع في شعره الأخذ عن القرآن الكريم ، تارة بالنص ، وتارة مع شيء من التبديل تقتضيه طبيعة الوزن والقافية . مثل قوله :

قَتَلْتُ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ وَلَمْ تَقْتُلْ وَلَمْ تُسْتَقْدَمْ تَقْدِماً<sup>(١)</sup>  
ففيه من قوله تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »

(١) لم تستد : لم تسأل القصاص ، ولم تقد : لم تقتص .

وقوله :

يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ يَبَرُّوا وَبَيْنَىٰ  
أَيُّهَا الْمُسْتَحَلُّ لِحَىٰ كُلُّهُ  
فَفِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ  
أَنْفُسَكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ، وَفِي الْبَيْتِ الْآخِرِ  
مِنْ قَوْلِهِ : « وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ  
أَخِيهِ مَيْتًا ؟ »

وقوله :

لَوْ بَكَتْ هَذِهِ السَّمَاءُ عَلَىٰ قَوْمٍ كَرَامٍ بَكَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ  
فَفِيهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ،  
وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ . »

وقوله :

فِي جَفَانٍ كَأَنَّهُنَّ جَوَابِ مُتْرَعَاتٍ كَمَا تَفِيضُ النَّهَاءُ  
فَفِيهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ  
وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ . . »

وقوله :

لَيْسَ لِلَّهِ حَرَمَةٌ مِثْلُ بَيْتٍ نَحْنُ حُجَّابُهُ عَلَيْهِ الْمَثَلَاءُ  
خَصَّهُ اللَّهُ بِالْكَرَامَةِ فَالْبَا دُونَ وَالْعَا كَفُونُ فِيهِ سِوَاءُ .  
فَفِيهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سِوَاءِ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ،

وقوله :

جزى الله يوم المَرَج رَعلا وقنفذا

جزاء كريمًا يوم تُبلى البواطن ،

ففيه من قوله تعالى : « إنه على رَجعه لقادر يوم تُبلى السرائر »  
هذه أمثلة لمقاس الشاعر من القرآن الكريم ، وهي كما ترى  
منوعة الموضوعات ، متعددة المواطن ، حسنة التهيد والإصابة  
وهيات أن يتبأ مثلها لغير حافظ متمكن محيط .

على أنه حين يصف الإبل والخيل ينجح في لغته إلى التوعر  
والشدة ، فإذا ما خلص منها وأخذ في سواها عاد إلى العهد به . من  
التسهل ، والركة ، واللين . فهذه الصفات إذا أصيلة فيه معرفة .  
أما التوعر والشدة فعرض مؤقت تقتضيه طبيعة الموضوع ولغته ،  
ولكن لا صلة له بذوق الشاعر وفنه . ومن قوله في وصف ناقة :

فَسَعَدَ الغداة عن ذكر نعم

نازح غَوَها بعيد المساف (١)

بذمُول عَيرانه ذات لَوث

عَنتريسٍ شَمِلَته مَقذاف (٢)

(١) القول : جماعة الطلح لشجر من أشجار العناء ، وهو كل شجر يعظم وله شوك .

(٢) ذمول : لينة السير ، عيراة . سرعة ، خفيفة . لوث . قوة . عنتريس . غليظة

قوية . شملة . سريعة . مقذاف . تتقدم الأبل لمرعها



عنتريس تنفى اللُغَام بمثل السَّ

بت هو جاء كالجلال الخفاف<sup>(١)</sup>

وهو يتناول معانيه من قريب ، ويعرضها كما وقعت له ، غير متكلف جهداً ، ولا يحاول صنعة ، فإذا هي المعاني الأولى التي تسرع إلى الذهن للنظرة المعجلة والتفكير اليسير . وهيات أن نجد عنده معنى عميقاً ، أو خيالاً مركباً ، أو حكمة مرسله ، أو أى مظهر من مظاهر التجشم والسكدح . وسنعود إلى الحديث عن هذا وأسبابه حين نتحدث عن الوصف في شعره . وهذا مثال من معانيه ، جئت به بعفوا ، دون تعمد ولا بحث ولا اختيار :

رقية تَيْسَمَتْ قلبي فوا كبدي من الحب  
وقالوا : داؤه طِب ألا بل جها طبي  
نهائى إخوتى عنها وما للقلب من ذنب  
وعن صفراء آنسة كنُحُوط البانة الرطب  
وما أقبلُ نصح النا صحى من شدة الكرب

وهو يستحب قصار البحور على طوالها ، والمجزوءات منها على الكوامل ، ويغلو في ذلك غلوأ كبيراً ، فيندر أن تظفر في شعره بقصيدة كاملة إلا على وزن قصير أو طويل مجزوء ، ثم هو لا يفرق

(٢) اللُغَام : زيد الأيل . السبت . يطلق على جلد البقر وعلى كل جلد مديغ .  
المرجاء : الناقة المرعة كأن جاهوجا . الجلال . الجمل العظيم . الخفاف . الخفيف .

في هذا بين مقام ومقام ، ولا بين موضوع . وموضوع قال يمدح  
مصعب بن الزبير :

لَمَصْعَبٍ عِنْدَ جَدِّ الْقَوِ لَ أَكْثَرُهَا وَأَطْيَبُهَا  
وَأَمْضَاهَا بِالْوِيَةِ يَسِدُ الْفَجِّ مَقْنَبُهَا <sup>(١)</sup>  
إِذَا خَرَجْتَ بِرَايَةٍ سَرَايَاهَا وَمُسُوكُهَا  
بِنَصْرِ اللَّهِ يَمْلُوهَا وَيَمْرِيهَا وَيَغْلِبُهَا <sup>(٢)</sup>  
وَقَالَ بِرْثِيهِ :

إِنَّ الرِّزِيَّةَ يَوْمَ مَسَدٍ كُنَ وَالْمَصِيَّةَ وَالْفَجِيَّةَ  
بِابْنِ الْخَوَارِزْمِيِّ الَّذِي لَمْ يَعِدْهُ أَهْلُ الْوَقِيْعَةِ <sup>(٣)</sup>  
غَدَرْتُ بِهِ مَضَرَ الْعَرَا قِي وَأَمَكَنْتُ مِنْهُ رِيْعَهُ  
وَقَالَ فِي الْغَزْلِ :

تَرَكْتُ قَلْبِي قَرِيحًا لَا أَرَاهُ مَسْتَرِيحًا  
خَيْرَتَنِي بَيْنَ أَنْ أَكُ تَمَّ سَرًا أَوْ أَبُوحًا  
وَلَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنِّي كُنْتُ بِالسَّرِّ شَحِيحًا  
أَتَقَى اللَّهَ وَأَخْزَى وَأَتَقَى عَرْضِي الْفُضُوحَا <sup>(٤)</sup>

(١) المتن : جماعة من الخيل تجتمع للنزاة

(٢) مرى الشيء : استخرجه ، والهم ويحرم أرضه .

(٣) الخواري : الثامر ، ولقب الزبير به لقول الرسول عليه السلام : « الزبير ابن

العوام ابن عمنى ، وحواري من أمي » .

(٤) الفضوح : كشف المساوي .

وقال في الفخر :

رُبَّ رِيْدٍ ودونها ناضب أو كناضب<sup>(١)</sup>  
 وذرا قُفٍّ سَنَسِبٍ لاحق بالسَّباب<sup>(٢)</sup>  
 قد تجشمت نحوكم بعِناق النجائب  
 مامعي غير صارم لِيَ والله صاحبي  
 والبحور القصار حرية أن تعجبه ، وتحف عليه ، فيؤثرها  
 ويستكثر منها ، فإن لها من تدارك الحركات ، وتموج الموسيقى  
 وسرعة التجاوب ما يلائم حسه الرقيق ، وطبعه المشرق ، وذوقه  
 اللطيف . أما البحور الطوال فهيئات ، لشدة جرسها وتوفر حركاتها  
 وجهارة سميتها ، وتباعد ما بين مقاطع الأنغام فيها .

وهو يتخير قوافيه ، ولا يألوان تكون طريقة معجبة ، رعاية  
 لحسن المشاكلة بينها وبين جرس البيت ، وتجربا للرقعة والظرف في  
 كل شيء . ولقد اجتمع لبعض قوافيه حظ من الرشاقة ولطف  
 المخالعة يندر أن يجتمع مثله في قواف من شعر غيره . قال في الغزل :

بَكَرَتْ عَلَى عَوَازِلِي يَلْحِينِي وَالْمُهْنِي  
 وَيَقْلُنْ شَيْبٌ قَدْ عَلَا لَكَ وَقَدْ كَبُرَ قَعْلَتِي : إِنَّهُ<sup>(٣)</sup>  
 إِنْ الْعَوَازِلُ لَمُنِي وَلَنْ أَطِيعَ أُمُورَهُنَّ .

(١) ناضب : يبيد ، أو قليل الحب .

(٢) قُفٍّ : الأرض المرتفعة . السَّباب : المغارة .

(٣) إِنَّهُ : يريد إِنَّهُ كُنْكَ ، ويصح أن تكون حرف جواب بمعنى نعم ، والماء الساكن

وقال :

سائلا فنذا خليلي      كيف أرواح رقيه <sup>(١)</sup>  
 إننى بُدِّلتَ منها      بدلا حُبًّا إِلَيْهِ  
 إننى بدلتَ خَوْدا      ذات دَلَّ بَخْتَرِيهِ <sup>(٢)</sup>  
 عادة الجسم رداحا      مثل قرن الشمس هِيَه  
 نبتت كالنصن وسط الـ      ساء فَرَعَى قرشيه  
 فابتغى غيـرى صديقا      ثم لا نَأْسَى عَلَيْهِ  
 وقال فى رثاء قتلى الحرة من أهله :

ذهب الصبا وترك غيَّته      ورأى الغواني شيبَ لَمْتِيهِ <sup>(٣)</sup>  
 وهجرنى وهجرتهن وقد      غَنَيْتُ كرائمها يطفن بيه <sup>(٤)</sup>  
 إذ لقي سوداء ليس بها      وَضَحَ ولم أُنْجَحْ ياخوتيه  
 الحاملين لواء قومهمُ      والذائدين وراء عورتيه  
 إن الحوادث بالمدينة قد      أوجعنى وقرعن مَروتيهِ <sup>(٥)</sup>

(١) فنذا : هو قدمولى عائقة بنت سعد بن أبي وقاص. (٢) البختريه : الحنته المشى والجسم (٣) الغية . الضلال . الاله . الشعر المجاور شعمة الأذن ، أى معلق للقرط منها . (٤) غنيت . عاشت . (٥) المروة : الحجر الصلب . ورقن مروه : أنزل البلاد به .

## أغراض شعره

يتفاوت الشعراء فيما يتناولون من أغراض الشعر، كما يتفاوتون في مبلغ البراعة فيه ، وفي كل أمر آخر له به اتصال . وتعدد أغراض الشاعر لا يعد في نفسه مزية يحمد عليها ، وتحسب له في كفة الرجحان ، فليس الأمر تكاثرا ولا مغالبة بالعدد ، ولكنه قبل كل شيء تفاضل في مبلغ الإجادة والإتقان . ولأن يتخصص الشاعر بغرض يعكف عليه ، وينقطع للتأني له ، فيز أقرانه فيه ، ويبلغ منه ما لا يبلغون خيرا من أن يحول في جميع الأغراض ثم لا يكون له في واحد منها تقدم ولا امتياز .

ولم يكن من هم ابن قيس أن يستكثر من أغراض الشعر ، أو أن يقصر نفسه على غرض واحد لا يعدوه . ولكن همه كان أن يقول فيما يعنيه ، ويتحرك له وجدانه . فلا تكلف ولا اعتساف . وكانت المرأة والسياسة أهم ما يهيمه من الأمر . وقد ذهب الأولى بغزله ، والأخرى بمدحه ، وهما جهرة شعره .

أما الرثاء فتشترك السياسة فيه والتعاطف . وربما شارك الاستمناع فيه وفي المدح أيضا . فما نعرف لقصيدته في طلحة الطلحات سيبا أيين ولا أقرب من الاستمناع والحاجة إلى المال . وأما الوصف وألفخر فداعيتهما عابرة ، وخطرها دون

خطر بقية الأغراض ، وقد كان له في غير الوصف بديل منه فيما كان بسيله . والفخر غرض شخصي ، عائدته إلى صاحبه قبل أن تكون إلى سواه ، لهذا أقل منهما ، ولم يكن يقصد إليهما إلا لما ، وفي قصائد مشتركة . وأما الهجاء فأحسب أن لم تكن به إليه حاجة ، بل أحسب أنه لا يتفق مع مزاجه ولا مع مذهبه السياسي . فقد كان في طبعه امرأ سمحاً عطوفاً مسالماً ، يحب السلم ، ويؤثر البدأة به ، ليس يعدل عنه إلا كارهاً أو مضطراً . وكان في سياسته على ما سيأتي — قرشياً لا حزياً ، يدعو إلى الجماعة والوئام ، وينكر الحزب والخصام ، فن عسى أن ينالهم بالهجاء؟ وأي غرض هناك يرمى به إليه ؟ وأي داعية تدعوه إلى تعاطيه غير مخالف طبعه ورأيه في سياسة الأحزاب ؟ لهذا كان الهجاء في شعره نادراً لا يكاد يجاوز بضعة عشر بيتاً .

فالأغراض التي قال فيها ابن قيس شعره هي : الغزل ، والمدح السياسي ، والرثاء ، والوصف ، والفخر والهجاء . وشعره فيها متفاوت المقادير ، ولكنه غير متفاوت في منازل الإحسان . فهو في كل منها يحافظ على طبيعته وخصائصه ، لا يسف ، ولا يعلو ، ولا يتشكّل بغير شكله المعهود ، لأنه كما أسلفنا لم يشأ أن يتكلف القول فيما لا يعنيه ، ولا يجيش نفسه بالقول فيه .

## الغزل:

لم يكن ابن قيس صانع غزل، ولا متكلف صباية، ولكنه كان عاشقا واجدا، له ذوق، وفيه ولوع بالجمال، ونزوع إلى المعابثة واللهو. تنصباه الحسان؛ فيعلق بهن، ويتلصص السيل إليهن؛ فيبلغ أربه، أو يذاد عنه ويختلف عليه ما يختلف على العشاق: من أمل ويأس، وانقباض وانبساط. لكنه كان مشترك القلب، موزع العواطف، فما يصبر على محبوبة واحدة، ولا يغنى بطلبها والتغزل بها عن طلب غيرها والتغزل به؛ فلكل من المزية والمذاق ما ليس لغيرها؛ فليطلبهن جميعا إن استطاع، وليجعل غزله قسمة بينهن جميعا أيضا إن استطاع؛ ليطنق تحرقه، ويشبع نهمه. وإنما مثله معهن كمثل النحلة الطلوب مع الأزهار، لا تغنى ببعض عن بعض، ولا تكف عن البعيد قناعة بالقرب. وكأنما كان شوقى رحمه الله يستلهم رأى ابن قيس فى المرأة وحاله معها حين يقول فى الخبر:

هات اسقنيها غير ذات عواقب

حتى تزع لصيحة الصفاق<sup>(١)</sup>

صرفا مسلطة الشعاع كأنما

من وجنتك تدار والأحداق

حراء أو صفراء إن كريمها

كالغيد ، كل مليحة بمذاق

ولقد يساوره الشوق ، وتهيج الذكري ؛ فيعلق خياله بأربع  
من حباته جملة واحدة ، تنسع نفسه لمن ، ويطيب له الحديث  
عنهن في وقت معا :

ألا أيها القلب اللجوج المعضبُ

علام الصبا والفي والرأس أشيب ؟

طربت لتغريد الحمام وربما

صوت وقد يهفوا الكريم فيطرب

ألا إنما ليلى مهابة غريرة

وسعدة في أترابها البيض رَبرَب

وسلامة الكبرى غدير وروضة

وسلامة الصغرى غزال مُرَبَّب<sup>(١)</sup>

وتأهب إحدى صواجه للرحيل ؛ فتقوم إليها جواربها ،  
يصنعها ، ويلبسها الحل والحلل ، فيعلق قلبه بهن ، كما علق بالسيدة  
ويتبعن نفسه معها ، ويتشوق إليهن جميعا :

إن في الهودج المحفّف بالديب

باج رثما مع الجوارى ريبا

صنّعت أيدى الجوارى وعلّق

من عليه زرجدا مثقوبا



ظلمت من شجوها وشجوا اللواتي

صنعتها أنادى الطيبا

وربما منح له المنظر الرقيق الأنيق ، فيه حب وحنان ، وفيه  
رشاقة وجمال ، ولكن لا مجال فيه لمغازلة ولهو ، فيرتاح له ،  
ويعجب به ، ولا يدعه حتى يخلده ، ويبعث التحية إلى صاحبه :

حيث عنا أم ذى الودع

والطوق ذى الخرزات والجرع<sup>(١)</sup>

تحنو على طفل تلاعبه

صلت الجبين لسادة صانع<sup>(٢)</sup>

يكي قسكته ببردتها

وعليه منها مائل الفرع

مُغدودين جمعت ذوائبها

بالمسك حُق مجيدة الجمع<sup>(٣)</sup>

وغزله في جلته صدى لأهوائه ، وصورة للانفعالات التي  
تتوارد عليه ، فهو إما رغبة ومحاولة ، وإما حكاية وتصوير . فن  
الأول قوله :

---

(١) الجرّع : خرز فيه سواد وياض

(٢) صلت الجبين : واضحه .

(٣) مُغدودين : طويل ملتف .

رُقِيَ بِعَمْرِكُمْ لَا تَهْجِرُنَا  
 وَمِنِنَا الْمَنَى ثُمَّ امْطِلِنَا  
 عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتَ إِنَّا  
 نَحْبُ وَلَوْ مَطَلْتَ الْوَاعِدِينَ  
 فَإِنَّمَا تَنْجِزِي عِدَّتِي وَإِنَّمَا  
 نَعِيشُ بِمَا نَقُولُ مِنْكَ حِينَا  
 تَبَقَّنَ اللَّهُ فِي رُقْيَا وَاخْشَى  
 عَقُوبَةَ أَمْرِنَا لَا تَقْتُلِينَا  
 وَمِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

هَلْ بَادَّكَ كَارُ الْحَبِيبِ مِنْ حَرْجٍ  
 أَمْ هَلْ لِهَيْمٍ الْفُؤَادُ مِنْ فَرْجٍ ؟  
 أَمْ كَيْفَ أَنْسَى مَسِيرَنَا حُرْمًا  
 يَوْمَ حَلَلْنَا بِالنَّخْلِ مِنْ أَمَجٍ ؟ (١)  
 يَوْمَ يَقُولُ الرَّسُولُ قَدْ أَذْنَتْ  
 فَأَتِ عَلَى غَيْرِ رِقْبَةٍ فَلَجِجْ  
 أَقْبَلْتُ أَمْشِي إِلَى رَحَاهُمْ  
 فِي نَفْثَةٍ نَحْوِ رِيحِهَا الْآرَجِ

---

(١) حرماً . عمرين ، الواحد حرام . النخل وأمج : موضان

تَهْوِي يداها بِشَفِّ زَيْتِهَا  
يُصِمِّتُنِي صَوْتُ حَايِهَا الْمَرْجِجِ<sup>(١)</sup>  
تَشْفٍ عَنْ وَاضِحٍ إِذَا سَفَرْتُ  
لَيْسَ بِذِي أَمَةٍ وَلَا سَمِجِ<sup>(٢)</sup>

وكان تعلقه بالجمال ، واشتداده في طلبه ، والتماسه المتعة به على قدر نفرتة من الدمامة ، واستهائته بصواجبها ، ورثائه للبتلين بها :

زَعَمَ ابْنُ قَيْسٍ وَهُوَ غَيْرُ مَكْذَبٍ  
أَنَّ الْقَبِيحَ بَرَزَقْنَ غَوَالِي  
إِنَّ الْقَبِيحَ عَلَى الرِّجَالِ رِزِيَّةٌ  
لَا تَسْكُنُ قَبِيحَةً بِقَبَالِ<sup>(٣)</sup>  
مَا لِلْقَبِيحِ رِزْقٌ كُلُّ خَطِيئَةٍ  
نَفَلَا كَمَا ذَمُّنَ كُلِّ جَمَالِ<sup>(٤)</sup>

ويذكر في إحدى غزلياته أنه كان في حبه عفا بريئاً ، لا يتلبس بالجمال لينال منه ، ويأثم فيه ، ولكن ل يتمتع بالنظر إليه من بعيد لأن فيه كرمًا يرده عن التي لا تجمل ، ويعصمه من التورط في.

(١) تهوى يداها : تمدان وترتفان . شف : فعل

(٢) الأمة : العيب والقص .

(٣) القبال : زمام العمل بين الأصم الوسطى وتاليها

(٤) ذمه : بالغ في ذمه

الآثام ، وإذا كان هناك من يتهمة ، ويشيع عنه السوء فما هو  
بصادق ولا أمين ، ولكنه كاذب مخادع ، يقول عنه ما لا يعلم ،  
ويرميه بما ليس فيه ، قال :

رَجُلَ أَنْتَ هُمَ حِينَ يَمْسِي  
خَامِرَتُهُ مِنْ أَجْلِكَ الْإِصَابِ  
لَا أَشْمُ الرِّيحَانَ إِلَّا بِعَيْنِي  
كَمَا إِنَّمَا تَشْمُ الْكَلَابِ  
رُبُّ زَارٍ عَلَى لَمْ يَر مَنِي  
عَثْرَةٌ وَهُوَ مِمَّنْ أَسْ كَذَابٍ<sup>(١)</sup>  
خَادِعٌ اللَّهُ حِينَ حُلَّ بِهِ الشَّدِيدُ  
بِ فَاضِحِي وَبَانَ مِنْهُ الشَّبَابُ

ومع ذلك لبس يخلو غزله من المواعيد والمقابلات ، ولا من  
التماس الحيل واتخاذ الرسل يذهبون بالرجاء والاستئجاز ويعودون  
بالنهي والتحذير أو بالإغراء والحث على المبادرة . ومن ذلك قوله :

بَشَّرَ الظُّلُمِي وَالْغُرَابُ بِسَعْدِي  
مَرْحَبًا بِالَّذِي يَقُولُ الْغُرَابُ  
قَالَ لِي : إِنْ خَيْرَ سَعْدِي قَرِيبُ  
قَدْ أَنْسَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ اقْتِرَابُ<sup>(٢)</sup>

(١) عأس : مفقود تمام

(٢) أنى . دنا

قلت : أنى يكون ذاك قريباً  
 وعليه الحصون والأبواب ؟  
 حبذا الرثم والوشاحان والقصد  
 سر الذى لا تناله الأسباب  
 إن فى القصر لو دخلنا غزالا  
 مُوصداً مُصنفقاً عليه الحجاب (١)  
 أرسلت أن فدتك نفسى فاحذر  
 شرطة ها هنا عليك غضاب  
 أقسموا إن لقوك لا تَطْعَمَ الما  
 وهم حين يقدرُون ذئاب  
 قلت : قد يغفل الرقيب وتُغْفَى  
 شرطة أو يحين منها انقلاب  
 وعسى الله أن يُؤتَى أمراً  
 ليس فيه على الحب ارتقاب (٢)  
 أرجى فافترى السلام عليها  
 ثم ردى جوابنا يا رباب  
 حديثها بما لقيت وقولى :  
 حق للعاشق الكريم ثواب .

(١) مصفقا : منفقا .

(٢) يُؤْتَى : يعطى .

بل ليس يخلو غزله من التقحم والاستهانة بالخطر ؛ إذ كان  
بعض الأحيان يدب إلى حباته في هدأة الكون وظلمة الليل، وإنه  
ليعلم أن الحراس هناك حائقون عليه ، ومتربصون به ، قد نذروا  
دمه ، وودوا لو يشربون منه :

تَقَنَّ الله في رُقَى واخشى  
عقوبه أمرنا لا تقتلنا  
بعيشك وارفق بي أم عمرو  
ويوم رجال أهلك يندُرونا  
دى ، ثم اندخلت إليك حتى  
تخطيت النيام الحارسينا  
فَيْتَ تسمهم قدى وثوبى  
وودوا من دى لو يشربونا

وسواء أ كانت علاقة ابن قيس بحباته بريئة كما يقول ، أم لم  
تكن كما يقول خصمه الذى تحدث عنه فى آياته السابقة لهذه —  
لقد كان فى تشبيهه متصونا عفا اللسان ، لا يقول خنا ، ولا يصرح  
بفسوق . وأشد ما له فى الغزل من العبث واللهو قوله :

ومثلك قد هوت بها تمام الحسن أعْيَبُهَا  
لها بعمل غيور قا عد بالباب يحجبها  
يرانى هكذا أمشى فيوعدها ويضرها

ظلمك على نمارقها أفديها وأخلبها  
أحدثها فتؤمن لي فأصدقها وأكذبها  
وقد يأخذ في غزله إخذ الجاهلين وشعراء البادية، فيقف بدار  
الحبيب وقد رحل عنها أهلها، فإذا هي قفر خلاء، وإذا الأيام  
والحوادث قد نالت منها، فأصبحت معالم ورسوما، لا غناء فيها  
ولا علم عندها، فهو يتأملها، ويردد النظر إليها، عسى أن يعرفها  
فلا يستطيع إلا تذكرها يشبه أحلام النائمين، قال :

ما هاج من منزل بذى علم  
بين لوى المنجنون فالتلم  
فبين قو عفت معارف مبه

ذلك بها الغاديات بالرهم<sup>(١)</sup>  
لم تبق منها الرياح معلقة  
إلا بقايا الثمام والخم<sup>(٢)</sup>

وقفت بالدار ما أئينها  
إلا ادكاراً توهم الحلم  
بادت وأقوت من الأنيس كما  
أقوت محارب دارس الأمم

(١) مبداءك : مقامك بالبادية . الرم . جمع رمة . وهي المطرة الضيقة الدائمة .

(٢) الثمام . نبت ضعيف لا يطول . الخم . كل ما احترق بالنار . الواحد . حمة

واستبدل الحى بعدها إضمًا

هيات غمر الفرات من إضم<sup>(١)</sup>

ولابن قيس بعد هذا صورتان مختلفتان في غزله ، فهو في شبابه عابث طروب ، قوى العاطفة ، موفور الحس ، يستجيب لنوازع الشباب ، ويأخذ له من المتعة بنصيب . فهو مدل متفائل ، وواثق طلب ، وقد مضت آنفا أمثلة لهذه الصورة . أما في الكبر فيتراى شيخا ضعيفا . علت به السن ، وظهر في رأسه الشيب ، فوهن عزمه وشاب أولاده . له ماض مع النساء ؛ وفيه من النزوع إليهن بقية فهو يصبو إليهن ، ويودلو بحاملته ويرفقن به ، لكنهن يعرضن عنه ، ويهزأن به ، ويشكرن عليه الصباة أو الغزل فينقلب كاسفا محزونا ، يبكى الشباب ، ويحن إليه ، ويمقت المشيب ويضيق به وقد يشتد به السخط على الحسان ؛ فيدعو عليهن ، ولكن في عطف ومودة . وربما غلب عليه اليأس ، وتمثل له الموت قريبا منه ، فاستسلم للواقع ، وراح يروض نفسه عليه قال :

طرق الخيال المعسرى      وهنا وساد العاشق  
طيف ألم فشاقي      للحدود أم مساحق  
تفر عن عذب وذى .      أشد بقلبك شائق<sup>(٢)</sup>

(١) اضم . جبل ، واسم لجزء من الوادى الذى تقع فيه المدينة المنورة .

(٢) أشد الاستان . التحيز الذى فيها .



كالا قُحَّوان مَرَّاتِه ومذاقه للذائق (١)  
 صباء صرف قَرْقَف شيت بنطفة بارق (٢)  
 بات تصفقا الصَّبا بقرار بين شواقي (٣)  
 الآن بُصرت الهوى وعلا المشيب مفارقي  
 وترك أمر غوايني وسلكت قصد طرائقي  
 ولقد رضيت بعيشنا إذ نحن بين عواقي  
 وركابنا تهوى بنا بين الدروب ودابي  
 ولقد علت بأني مَيت لقدرة خالقي  
 وقال :

ذهبت ولم تزر أهل الشفاء  
 ومالك في الزيارة من جداء (٤)  
 كبرت فلست من شرط الغواني  
 وفارقت الصبا غير الخفاء  
 وشاب بنوك فاستحييت منهم  
 وأبت إلى العفاة والحياء (٥)

(١) مرَّاتِه : مرَّاتِه .

(٢) قَرْقَف : بارد . بارق : سحاب ذو برق .

(٣) تصفقا : تحركها

(٤) جداء : قح

(٥) العفاة : العفة .

وقال :

لا بارك الله في الغواني فما

يصبحن إلا لمن مَطْلَب

أبصرن شيئا علا النؤابة في الرء

أس حديثا كأنه العُطْب<sup>(١)</sup>

فهن يشكرن ما رأين ولا

يُعرَف لي في لداقِ اللعب

وهو يهتف في غزله بكثير من أسماء حبايبه ، يهتف بسلي ،  
وسعدى ، وسلامة ، والثريا ، وأسماء ، وغيرهن . وإذا قدرنا أن  
عدد حبايبه كان على قدر عدد الأسماء التي هتف بها في غزله ، وأنه  
لم يكن يكنى باسم عن غير صاحبه كانت جملة من تعلق بهن لا تقل  
عن أربع عشرة امرأة . ويبقى بعد ذلك الغزل الذي لم يشأ أن  
يذكر أسماء صواحيبه فيه : لا ندرى أهو في بعض من هتف  
بأسمائهن أم في معشوقات آخر لم تسمح الظروف له أن يصرح  
بأسمائهن فيما صرح به من أسماء . واسم الرقيات على كل حال كان  
كاسبق أكثر الأسماء دورانا ، وأشيعها ذكر آ في غزله .

ويقول صاحب الأغاني : إن رقية بنت عبد الواحد بن  
أبي سعد العامرية كانت أحب الرقيات إليه ، وآثرهن عنده<sup>(٢)</sup> .

(١) المطب . النطن .

(٢) الأغاني : ٥ : ٧٤ .

وقد عرف من غزله فيها ثلاث مقطعات ، خات كل منها من الوصف الكاشف الذى يدل عليها ، ويميزها بين الحسان . وكل ما هنالك ملامح عامة ، يقل ألا ترى فى عريّة مدلة حسناء . قال من إحدى مقطعاته فيها :

مَنْ عَذِرِي مَنِ يَضُنْ بِمَبْدُو  
لَ لَغَيْرِي عَلَى عِنْدِ الطَّوَافِ ؟ <sup>(١)</sup>  
أَحُورَ الْعَيْنِ فَاتِقَ الْحَسَنِ حُلُومِ  
قَوْلِ مَرِّ الْفَعَالِ ذِي إِخْلَافِ  
يَعِيدُ الْعَوْدَ ثُمَّ يُفَاغِي بِخَيْلِ  
كَاذِبِ الْعَهْدِ وَأَيُّهُ غَيْرِ وَافِ  
إِنْ فِي الْيَأْسِ فَاعْلَمِي أُمَّ عَمْرُو  
رَاحَةَ وَالْيَأْسِ لِلرَّءِ شَافِ

وقال من أخرى :

إِنِّي عُلِّقْتُ خَوْدًا      ذَاتَ دَلٍّ بِخَتَرِيَّةِ  
غَادَةِ الْجَسْمِ رَدَاحًا      مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ هِيَّةِ  
نَبَتَتْ كَالْغَصَنِ وَسَطَ الْهَامِ      فَرَعِي قَرَّ شِبْهِ  
وقد سبقت رواية هذه الآيات حين الكلام عن خصائص شعره . والقطعة الثالثة هي :

(١) يريد كما يقول الأتاني أنها تعجل المحر الأسود ، وتعجن طيه قبلتها .

حَبَّ ذاك الدل والغُشج  
والتي في طرفها دمع (١)  
والتي إن حدثت كذبت  
والتي في وصلها خَلَج (٢)  
تلك إن جادت بنائلها  
فإن قيس قلبه نلج  
وترى في الليت سُنَّتْهَا  
مثل مافي البيعة الشُرج (٣)  
حدثوني هل على رجل  
عاشق في قبلة حرج

ويذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن غزل ابن قيس  
بأم البنين كان هجائياً، أو بوصف آخر سياسياً، أراد به الشاعر  
أن يغيظ الأمويين وينال منهم، لا أن يصف جمال أم البنين،  
ويصور حبه لها. لكن الأستاذ الدكتور لا يقيم رأيه هذا دليلاً،  
ولا يذكر له سبباً صريحاً. وكل ما هنالك تفريع منه يقول فيه:  
«إن ابن قيس قد وصل من هذا الغزل الهجائي إلى كل ما كان يريد»

(١) الغشج : حب الدل . الدمع : دقة سواد العين مع سمنها

(٢) الخَلَج : الاضطراب .

(٣) الشنة : الصورة .

فأحفظ بنى أمية عليه أشد إحفاظ حتى أهدروا دمه ، وأبرءوا  
ذمتهم من آواه<sup>(١)</sup> واقتبس الأستاذ أحمد الشايب هذا الرأى فى  
كتابه تاريخ الشعر السياسى ، ولكن دون تعليق عليه ،  
ولا استدلال له<sup>(٢)</sup>.

ومعنى هذا وذاك أنهما يريان أن إهدار الأمويين دم ابن قيس  
إنما كان لسبب تشبيهه بأم البنين ، ولعلهما يريان كذلك أن هذا  
يستلزم أن تشبيهه بها كان سياسيا .

ولست أرى رأيهما فى ذلك ، سواء ما صرحا به ، وما يمكن  
أن يفهم باللزوم والاستنباط . فالأمويون كان يمكن أن يهدروا  
دم ابن قيس لتشبيهه بأم البنين لو لم يكن له إليهم ذنب آخر عظيم ،  
يبيحهم دمه ، لكننا نعلم أنه كان لهم عدواً مينا ولأعدائهم ولياً  
حمياً ، ناصرهم ، وجاهد معهم لهدم الأموية ، وإقامة دولتهم على  
أنقاضها بكل ما يملك من أسباب المناصرة والجهاد . فكيف إذا  
أهدر الأمويون دمه لا يكون إهداره لغير التشبيب بأم البنين ؟  
أتراهم فيما لا يضيرها كانوا أغبر عليها وأشد حماسة لها من الخلافة ؟  
صحيح أن ابن قيس لم يكن يشبب بأم البنين ، وهو راض  
عن الأمويين ومشايخ لدولتهم . وإلا فما باله لم يشبب فيما نعلم بأحد

(١) حديث الأرباء : ١ : ٢١٩ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : ٨ .

من نساء الزيريين أو الهاشميين مثلا؟ ولكن هذا لا يعنى حتما أن يكون تشبيهه بأم البنين تشييب هجاء لا تشييب غرام؛ فقد يعلق بأم البنين ويعلق بسواها من نساء الزيريين والهاشميين ، لكن بغضه الأمويين حيثئذ لا يمنع أن يجهر بحب أم البنين ، فيحوله من عواطف مكبوتة وأحاديث نفس خفية إلى غزل عذب رقيق ، يتداوله الناس بالرواية والتعليق ، وحب الزيريين والهاشميين يمنعهم أن ييوح بحب نسائهم ، فيظل سرا مكتوما لا يعلم به أحد. فتكون الخصومة إذا مجرد رخصة للتخلل والتفريج ، وتكون المودة مجرد صمام للكبت والكتمان . أما الباعث على التعلق فالحب والإعجاب على الحالين .

وصحيح أن ابن قيس آذى الأمويين ، وأسخطهم عليه حين شبب بأم البنين ، ولكننا نستبعد أنه قصد إلى ذلك وتعمده ، ونعتقد أنه لو أراد أن يأخذهم به صراحة كما أخذهم بالتهديد والوعيد في مطولته الهمزية التي مدح بها مصعب بن الزبير ، ولتناول مع أم البنين غيرها من سيدات البيت الأموى ، ليكون المجال أفسح مدى ، وأكثر تشعبا ، ولتحدث عنهن أحاديث التصريح والمجاهرة لا أحاديث الاحتيال والمواربة ، فذلك أوجع للنفس ، وآذى للكرامة والعرض . أما هذا العبث الرقيق لا إثم فيه ولا فحش فليس هناك .

ولا محل لاعتبارات التقية والحذر في هذا المقام ، فقد عان ابن قيس خصومه أنه مزور عنهم ، وكاره لهم في غير لبس ولا احتياط ، إذ يقول :

أنا عنكم بنى أمية مزور م وأتم في نفسى الأعداء  
ورأينا عبد الملك بن مروان يقدم ابن قيس إلى أهل الشام  
بعد أن عفا عنه ، ويذكر لهم ذنبه إليه وإساءته إلى ملكه فيقول :  
« يا أهل الشام . أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ؛ فقال : هذا عبيد الله  
ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومي على الفراش ولما

تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي

عن خدام العقيلة العذراء “

وهي كما ترى شكوى العدو من عدوه ، يحقد عليه ، ويتمده بتأليب الجوع وشن الغارة الشعواء ، وليست هي بشكوى المغاضب لشاعر عابث ، يقع في عرضه ، ويتقول عليه الأقاويل . فالرأى عندي أن غزل بن قيس بأم البنين كان غزلا من الغزل وأن أم البنين كانت فتاة جميلة من فتيات بيت الخلافة ، رآها ابن قيس أو سمع بها ؛ فتبعها نفسه كما تبعت غيرها ، وشبب بها كما شبب بها سواء ولا مزيد . وما عدا ذلك فشيء لم يردده ابن قيس ولا قصد إليه .

## المدح السياسى :

وإنما نسبنا المدح وحده إلى السياسة ، مع أن لها فى سائر أغراض الشاعر توجيهها وعملا ؛ لأن المدح هو الغرض الذى يوشك أن تكون السياسة سيئه الوحيد . ولا بد أن نعرض ها هنا رأى الشاعر السياسى الذى دان له ، وثبت عليه سنين طوالا . فقد كان ذا رأى فى السياسة فريد ، لا نعرف له نظير ابين آراء شعرائها الأولين ؛ فكانوا إما شعراء أحزاب يتعصبون لها ، وينشرون دعوتها ويجاهدون خصومها ، وإما شعراء جمهورية ينكرون الحزبية والتحزب ، ويدعون إلى المساواة والشورى فى أمور المسلمين . أما هو فيوشك أن يكون وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، فليس يتعصب لحزب على حزب ، ولسكن يتعصب لقريش على سائر القبائل بل على سائر الناس من كل جنس ؛ فهو يراها أحق بالخلافة وأهلها ؛ لأن لها من المفاخر الكثيرة ، والمآثر المتعالة ما ليس لسواها : جاراها آمن ، وبلدها محجوج ، وفيها سدانة البيت ، وإليها ولاية أمر الحجيج . وهى الصفوة المختارة لخل رسالة الله ودعوة الناس إليها وبجاهدتهم فيها . فمنها الرسول الكريم الذى أرسله الله للناس كافة ، ومنها السابقون الأولون من الصديقين والخلفاء الراشدين ، الذى باعوا نفوسهم لله ، وأبلاوا فى نصرته أحسن البلاء . لذلك فهو كاسف محزون ، يمضه تصدع وحدتها وتفرق كلمتها ،



ويود مخلصاً لو استأنفت أمرها ، وعادت إلى سابق عهدها من  
المودة والتآلف والوفاق . هذا هو رأيه السياسي في أصله وحقيقته :  
لا حزبية ولا جمهورية ، ولكن قرشية متآلفة مسودة . وقد ظل  
حياته مخلصاً له ، لا يفرط فيه ، ولا يغفل عن الجهر به كلما عنت  
مناسبة . ذكره في قصيدة الرحلة إلى فلسطين حيث يقول :

هزئت أن رأيت في الشيب عرسى  
لا تلومى ذوابى أن تشيا  
إن يشب مفرق فإن قریشا  
جعلت بينها الحروب حروبا

وذكره في قصيدته الحمزية التي مدح بها مصعب بن الزبير  
حيث يقول :

أيها المشتى فناء قریش  
يسد الله عمرها والفناء  
إن تؤدّع من البلاد قریش  
لا يكن بعدم لحى بقاء  
لو تّعفى وتترك الناس كانوا  
غنم الذئب غاب عنها الرعاء  
هل ترى من مُخلّد غير أن الله  
ه يبق وتذهب الأشياء ؟

يأمل الناس في غد رَغَبَ الدهر  
 ر ألا في غد يكون القضاء  
 لم نزل آمين يحسدنا لنا  
 من ويجرى لنا بذاك الثراء  
 فرضينا فمُتْ بذاك غما  
 لا تُمَيِّتَنَّ غيرَكَ الأدواء  
 نحن منا النبي الامي والصد  
 يق منا التقى والخلفاء  
 وقتيل الأحزاب حمزة منا  
 أسد الله والثناء سناء  
 وعَلَى وجمعة ذو الجناء  
 ين هناك الوصى والشهداء  
 والزبير الذي أجاب رسول الله  
 ه في الكرب والبلاء بلاء  
 والذي نَعَصَّ ابنَ دومة ما تو  
 خي الشياطين والسيوف ظاء (١)

---

(١) ابن دومة هو المختار الثقفي ، والذي نعه مصعب بن الزبير . وكان المختار يزعم أنه يلهم حزبا من السج لأمور تكون ، ثم يختار فيوقه ، ويقول للناس : هذا من عند الله .

وذكره في قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان إذ يقول :  
يا حبذا يثرب<sup>١</sup> ولانتها  
من قبل أن يهلكوا ويحتربوا  
وقيل أن يخرج الذين لهم  
فيها النساء العظيم والحسب .

إلا أن حديثين مشيرين وقعا لعهد يزيد بن معاوية ؛ فأحزنا الشاعر  
وأثارا سخطه على بني أمية ، واضطراه اضطراباً أن يتعصب عليهم  
ويؤيد عدوهم : ذاك هما مقتلتا أصحاب الحسين وأصحاب الحرة ؛  
فكلتاها قد أرثت العداوة والبغضاء ، وأحبطت دعوته وكل دعوة  
من قبيلها إلى الألفة والوثام . ولم تسلم مع ذلك مقتلته الحسين  
وأصحابه من أعمال لا تصدر إلا عن الغرور والسفه والقسوة .  
الغشوم والتشقى الحاقده الذليل . وكان ما أصاب أهله يوم حرة .  
واقم ذريعاً قاسياً ؛ فقد قتل منهم فريق ، وشرذ فريق من  
الأيامى والأيتام .

وما كان لرجل له ما لأبن قيس من الشاعرية والمنزلة في قومه  
أن يمر به هذان الحادثان أو أحدهما فلا يغيره ، ولا يثير نخوته  
وحماسة . فقد كان شاعر قريش ، أو في الأقل قلباً من قلوبها .  
الحافقة ، ولسانا من ألسنتها المعبرة الناطقة . وكان عميد قومه ،  
صاحب الشأن الأول فيهم ، فليس يسعه إذا إلا أن يثور لهؤلاء

وهؤلاء ، وأن يحاول التآمر لهم جميعا عن المفجوعين فيهم من النساء والأطفال ، استجابة لداعي الحمية والرحم ، وأداء لضريبة التقدم والنبوغ .

وها هي ذى دولة ابن الزبير تنمو وتشتد ، والناس يسارعون إليها ، ويدخلون في دعوتها . فليس أحزم للرأى ، ولا أنجح للسعى من الانضمام إليها ، والأخذ بناصرها في هدم الأثمية وتعفية آثارها . ذلك فيما يبدو لنا سر إقباله على الزبيرية ومغاضبته للأثمية . ونحن واجدون من شعره حجة له وشاهدا . قال من قصيدة في رثاء قتلى الحرة :

كيف الرقاد وكلما هجعت

عيني ألم خيال إخوته

تبكى لهم أسماء معولة

وتقول ليلي : وارزيتيه

والله أرح في مقدمة

أهدى الجيوش على شككتيه<sup>(١)</sup>

حتى أجمعهم باخوتهم

وأسوق نسوتهم بنسوته

وقال من مطولته في مدح مصعب :

(١) المسكة : اللاح .

أنا عنكم بنى أمة مزور  
وأتم في نفسى الأعداء  
إن قتلى بالطِّفِّ قد أوجعتنى

كان منكم لئن قُتِلْتُمْ شفاء<sup>(١)</sup>  
ولما أن غلبت الأموية وخلّاهما وجه الحكم ، ولم يبق له ملجأ  
إلا إليها — اضطر أن يروض نفسه على الرضا بالواقع والاستسلام  
لحكمه ؛ فاستشفع إلى عبد الملك ، وأقبل يمدحه ويمدح بيته ،  
ويدافع عن حقهم في الملك ، ويرمى أعداءهم بالبغى وبتهمهم  
بالكذب والتعلق بالباطل :

أحفظهم قومهم بياطلهم حتى إذا حاربهم حاربوا  
تجددوا يضربون باطلهم بالحق حتى تبين الكذب  
وإذا كانت الأحداث قد اضطرت ابن قيس أن يستغفر  
الأمويين ويمدحهم فما أحسب أنها كانت تضطره إلى تحقير  
خصومهم وإنكار المطالبة بالخلافة عليهم ؛ فما أعرف أن الأمويين  
رغبوا إليه في ذلك أو أرادوه عليه ، ولا أن مقتضيات الحال  
كانت توجهه ضربة لازب . ومهما يكن الواقع فما أظن أنه كان  
يعنيه أن يسترضيهم ويكسب مودتهم بغير التمسك لرأيه  
والإضرار بأصدقائه .

(١) الطِّفِّ : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية . وبها كان مقتل الحسين

صحيح أن امتداح ابن قيس للأمويين لا يناقض مذهبه السياسي في أصله وجوهره ، لقيامه كما سبق على التعصب لقرش واعتبارها أصلح الناس للخلافة وأحقهم بها ، لكن الذى يناقضه حقاً أن يسفه خصوم الأمويين ، ويرميهم بالكذب واتباع الباطل حين يخرجون على الأمويين ، لأنهم يرونهم مغتصبين للخلافة ، أو منحرفين عن النهج فى السياسة وتدير الأمر . فعنى ذلك أن الأمويين أصبحوا وحدهم أصحاب الحق فى الخلافة ، وأن الشاعر قد صار من القرشية إلى الأموية ، أو بتعبير آخر قد خرج من التعصب للقبيلة ومحايدة الأحزاب إلى التعصب للأمويين على بقية الأحزاب .

نعم إن ابن قيس لم يعين هؤلاء الذين وسعهم بالكذب واتباع الباطل ، وإذا ليس هناك دلالة صريحة على أنه يعنى بهم الزيريين لكن إغفال التسمية والاجتزاء منها بالإشارة والوصف بما يوسع مدى الدلالة ، ويساعد الفهم أن يدخل فيها كل ما يمكن أن تنطبق عليه . والزيريون بلا مرأى أول من يخطر بالبال فى هذا المقام ، وخاصة إذا لحظنا أن صلة ابن قيس بعبدة الله بن جعفر بن أبى طالب كانت على خير ما تكون من الإجلال والاعتراف بالفضل والإخلاص فى الولد ، وأنه يبعد لذلك جداً أن يمس طاشمين عامة بما يمكن أن يسيئهم من قريب أو بعيد .

وقد يقال : إن ابن قيس كان قد تحول إلى مثل هذا الرأى يوم

انضم إلى الزيريين ، ينصرهم على الأمويين . والواقع أنه كان هناك غيره هنا ؛ فهناك كان زعيما حيا ، ينتصف لمظلومين بغى عليهم السلطان ، وأعمل فيهم القتل والتشريد ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك بغيته وحده ، بل مع آخرين من أولى البأس والغناء ، فانضم إلى الزيريين ، تجمعه إليهم وحدة الوسيلة ، وتفرق بينه وبينهم الغاية والإحساس . فقد كان مورتورا يطلب الثرة ، وكانوا ملاعين يطلبون السلطان ، وسيله وسيلهم القضاء على الأموية ، فأبما جهد يبذل في ذلك يكون بمثابة خطوة تدنى كلا من أمله المنشود . ولأمر ما رأينا ابن قيس في مدح الزيريين لا ينم الأمويين ، ولا يرميهم بما يرمى به الزيريين حين يتدح الأمويين ، ولكن يهددهم ، ويعالئهم بالعداوة والبغضاء .

تلك حاله هناك ، أما هنا فخائف متوجس ، يحذر الظنة والحرمان ، ويعتصم لاتقائهما بمجافاة أصدقائه بالأمس ومخالفة رأيه السياسي الأصيل .

ويذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن ابن قيس إنما تغير على الأمويين ، وكره مكانهم « لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل البمانية <sup>(١)</sup> » . وتأخذ على هذا الرأي أنه مرسل ، لا حجة له ولا سند ،

وأنه لا يتفق مع ثورة ابن قيس على الأمويين لاني فكرتها  
 وجوهرها، ولا في حديثها وعنفها. فأم ما كان يعنيه من سياسة  
 الدولة أن تتفق كلمة قريش، وأن تكون لها الخلافة من دون  
 الناس. أما ما عدا ذلك فتوافل وفضول لا تقلق باله، ولا تهيج  
 حماسه. وإذا كان الخير الذي يرتجيه الأمويون للخلافة من  
 الاعتزاز باليمانية والتعويل عليها غير واقع ولا بعرض وقوع في.  
 رأى ابن قيس، فإن الخطر الذي يخشاه عليها من ذلك غير واقع  
 ولا بعرض وقوع أيضا في رأى الأمويين. وهو حقيق أن يعلم أنه  
 ليس أبصر منهم بدخائل السياسة في دولتهم، ولا أعرف منهم  
 بصالح الخلافة، ولا أحرص منهم على أن تظل في أيديهم ترأثا.  
 باقيا على الأيام. والرأى من كلا الجانبين يقوم على الظن والتقدير.  
 وابن قيس بعد هذا ليس صاحب الشأن الأول في الخلافة  
 ولا هو وحده المسئول عن مصيرها، المأخوذ بما قد ينزل بها من.  
 أخطار، فإنما هو منها ككل رجل آخر من جمهرة الدعاة وأصحاب  
 الكفريات. ولست أدري مع هذه الاعتبارات وفي هذا الوضع  
 كيف يمكن أن يقال إن كل ما أتى ابن قيس من عمل، وكل  
 ما قال من قول لمناهضة الأموية وتأيد أعدائها — إنما كان  
 مجرد الغضب والتعصب للبضرية أن ليس لها من الشأن والتقدمة  
 في الدولة مثل ما لليمانية؟ وكيف يمكن أن تثيره الحماسة لذلك.



كل هذه الثورة ؛ فنسمعه يعجب لنفسه وينكر عليها أن يقر لها :  
قرار ، أو يطيب لها نوم قبل أن يسوق الجيوش إلى بني أمية ،  
ويشن عليهم غارات شعواء شاملة ، تذهل الشيخ عن بنيه ، والعقيلة  
العذراء عن نفسها ، فتنسى تصونها ؛ وتكشف عن حلاها جزعا  
وهلعا ، وزاه يخرج لقتالهم مع مصعب ، ثم لا يقبل أن يفارقه .  
حتى يعرف مصيره ، ويقضى الله فيه قضاءه ، وإنه ليعلم علما ليس  
بالظن أن الأمر قد انتشر عليه ، وأن الناس قد أسلبوه وتخلوا  
عن نصرته إلى غير رجعة .

ولارب أن ابن قيس حقيق أن يآلم لانحراف الأموية عن  
المضرية ، وأن يأخذها بهذا الانحراف ، عتابا ، أولوما ، أو هجاء ،  
أو ما يشبه ذلك . ولكنه ليس حقيقا أن يطيش له ، وأن  
يركب الهول في سبيله ، وذلك إن فعل غير سائغ ولا مفهوم ،  
ما بقيت الأمور تقاس بمقاييسها الصحيحة ، ويكون للحكمة  
والاعتدال في تصرفها حساب .

ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين عن مذهبه السياسي فيما  
يقول : « فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة : اتصل بحزب  
الزبيرين وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويين وفيهم قال  
المكثير الجيد ، واتصل بالهاشميين وفيهم أحسن وأجاد (١) :

فالاستاذ الدكتور يذهب إلى أن اتصال الشاعر بعبد الله بن جعفر ومدحه إياه كان عن تحزب وسياسة ، كاتصاله بالزبيرين والامويين ومدحه إياهم . وزى أنه كان اتصالا من نوع آخر ، كان يمكن أن يكون بينه وبين أى رجل آخر يصنع له مثل ماصنع عبد الله : فهو اتصال الشكر على الصنعة والاعتراف بالجميل ، وليس اتصال الحزبية ومقاصد السياسة ، فلم يكن عبد الله يومئذ على الأقل خصما للامويين ولا منافسا لهم فى السلطان ، بل كان خيبيا إليهم وأثرا عندهم ، ولهذا لجأ الشاعر إليه يعوذ به ، ويسأله الشفاعة فيه . وليس فى مدحه إياه إشارة خفية أو جليلة إلى السياسة أو محاولة الخلافة والطمع فيها .

وبعد ، ففعل أعم ما يبدو فى مدح ابن قيس من خصائص أنه لا يتخذ من الممدوح فى أكثر الأحيان موضوعا قائما بنفسه ، يقصر المدح كله أو أكثره عليه ، ولكن يتخذه فرعا لأصل اشتق منه ونما على مثاله ، فليس يستقيم الحديث عنه إلا معه ، وليس يصح أن يكون له منه إلا ما يكون لواحد فى جمع . وكل ما يختص به دونهم من مزية أنه يزجى إليه نصيده وحده ، ويزجى إليهم نصيبهم مجتمعين . وتلك بقية من نظام القبيلة فى الجاهلية ، وأثر من علاقتها بأبنائها وعلاقة أبنائها بها . فقد كانوا منها كما تكون البنت فى البنية الشاخصة أو الأعضاء فى الجسم الحى ، يظهر بعضها بعضا ، ويعمل

كل منها لخير سواه في تكافل وانقياد ، تضعف معهما ظواهر  
التحرر واستقلال الشخصية . ويصور دريدن الصمة هذا المعنى  
أجمل تصوير وأوضحه حيث يقول :

أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللوى  
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحا الغد  
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى  
غوايتهم وأتى غير مهتد  
وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت  
غويت وإن ترشد غزيرة أرشد؟

وربما تناول الممدوح أيضاً باعتباره أصلاً منجياً ، له فروع  
تتأثره وتنمو على شبه منه : زكاه وكرما . قال يمدح عبد الملك  
بن مروان :

أحلك الله والخليفة بالـ  
خوطة دارا بها بنو الحكم  
المانع الجار أن يضام فـ  
جار دعا فيهم بمهضم  
والوارثو منبر الخلافة والمـ

موفون عند اليهود بالذم  
٩- تيس

والجأرو كسر من أرادوا وما لـ  
 كسر الذى أوهنوا بملتهم  
 فهم إذا جَلَّتْ مُدَجِّية  
 نجوم ليل تنير فى الظلم (١)  
 الكاشفو غمرة إذا نزلت  
 بالناس إحدى الجوائح العُظم (٢)  
 ليسوا يمتنون فضلهم وطم  
 فضل علينا بأحسن النعم  
 تحبهم عوذ النساء إذا  
 أبدى العذارى مواضع الخدم (٣)  
 وأنكر الكلب أهله وبدت  
 حرب عوان تشب بالضرم  
 منهم إمام الهدى له نعم  
 عندى وأيد تصوب بالديم  
 خليفة يقتدى بسنته  
 فى إرث مجد الثراء والكرم .  
 وقال يمدح عبد العزيز بن مروان :  
 أثن على الطيب ابن ليلي إذا  
 أثنت فى دينه وفى حسبه

(١) جَلَّتْ : شلت (٢) العُظم : جمع العظمى

(٣) عوذ : لاجئ . لاجئات : معطاة . الخدم : الخلائع .

من يصدق الوعد والقتال ويخ  
 شى الله فى حلسه وفى غضبه  
 ومن تفيض الندى يداه ومن  
 ينتهب الحمد عند مُنتَهَبه  
 أمك يضاء من قضاة فى الـ  
 بيت الذى يُستظل فى طُنبه (١)  
 وأنت فى الجوهر المهنّب من  
 عبد مناف يذاك فى سبيه  
 يخلفك البيض من بنيك كما  
 يُخلف عودُ النصار فى شُعبه  
 ليسوا من الخروع الضعيف ولا  
 أشباه عيدانه ولا غرّبه (٢).

ويكثر ابن قيس فى مدحه من ذكر أمهات المدوحين ،  
 وربما صرح بأسمائهن كما سبق فى مدح عبد العزيز بن مروان .  
 وقد لحظ عبد الملك منه ذلك ، وأنكره عليه . ففى الموشح أن  
 عبد الملك بن مروان قال لعبد العزيز بن مروان : ما بال ابن قيس  
 الرقيات يذكرك بأملك ، كأنه ليس لك بأيك شرف ؟ وكان  
 ابن قيس الرقيات قد قال فى عبد العزيز :

---

( ١ ) العقب : جبل طويل ، يشده سراقق ليل . ( ٢ ) غربه : شجره .

جاءت به حرة مهذبة  
 كلية كان يتيها دعماً<sup>(١)</sup>  
 مثلاً صبيات والفوارع لم  
 يحملن فوق العواتق الحُرماً<sup>(٢)</sup>  
 فلما دخل ابن قيس الرقيات على عبد العزيز قال له ذلك ؛  
 فقال : إنما حسدك ، والله لأقولن قصيدة أذكر فيها أمه وبطنها ،  
 ثم ليرضين . وسأله أن يحضر من الغد ، فلما اجتمعا عند  
 عبد الملك أنشده :

أنت ابن منبطح البطا  
 ح كبدٍها فكدائها  
 ولِبطن عائشة التي  
 فرعت أروم نساءها  
 ولدت أغر مهذبا  
 كالشمس عند ضيائها  
 في ليلة لا عيب في  
 سحرٍها وعشائها<sup>(٣)</sup>

(١) دعما : دعام .

(٢) ملاصبات : من الملاصبات من بنى كلب . الفوارع : الطويلان  
 الحسان الهيئة .

(٣) السحرى : السحر . والآيات كما يروها المزدباني مخالف رواية الديوان  
 بعض الخلف وكثير من التثنية في المفردات .

فلما خرجا من عند عبد الملك قال له : كيف رأيت تقبله هذا  
الشعر ؟ (١)

وأعتقد أن ابن قيس لم يرد الغض من عبد العزيز بن مروان  
حتى من وجهة نظر عبد الملك أخيه ؛ لأنه لم يذكر عبد العزيز بأمه  
وحدها ، ولكن بأبيه وقومه ، ثم بأمه وقومها ؛ تمجيداً لمحتده  
من جانبي الأبوة والختولة جميعاً . وهذا ما يقوله له قبل البيتين  
الآنفي الذكر :

أغر أشياخه العصاة بنو  
أمية المرغمون من رغبيا  
أشياخ صدق نسموا بمعتلج الـ  
بطحاء كانوا لقومهم عصما  
نالوا مواريث من جدودهم  
فورثوها مروان والحكما  
أهل الحتمالات والدسعة والـ  
مفنون عند الشدائد البهما  
من البهاليل من أمية يز  
داد إذا ما مدحته كرمأ  
لا يحسب المدحة الخداع ولا  
يُدرك تياره إذا التظما

جاءت به حرة ...

ثم هو نفسه قد ذكر أمه في الفخر حيث يقول :

أحى لقيس في الذرا وأبى لعاتكة المهيرة<sup>(١)</sup>

وليس يغيب علم ذلك طبعاً عن مثل عبد الملك في أدبه وفهمه، ولكن يظهر أنه لم يكن عظيم الثقة بإخلاص ابن قيس وصدق توبته إليه . ولا يبعد أن يكون مرد الأمر كما يقول ابن قيس إلى الحسد وحب النفس ، فليس له في عبد الملك قصيدة تبلغ من القوة والروعة ووفاء الإحاطة وحسن الاقتضان ما بلغت ميميته في عبد العزيز بن مروان . وهي القصيدة التي أنكر عبد الملك أن تذكر فيها أم أخيه عبد العزيز .

### الرثاء :

كان رثاء ابن قيس سياسياً ، تتصل كثرته بالسياسة من قريب . وآخر مرثياته عاطفة ، وأشدّها لوعة وجزعاً مرثياته في أصحاب الحرة من أهله ، وفي مصعب بن الزبير . وهذا طبيعي ؛ فأولئك من عشيرته الأقربين ، وقد فتك بهم السلطان ، وهو رجل بر عطف فيه لأهله حب ومرحمة . ومصعب كان من أحب الأصدقاء إليه ،

---

(١) الميعة : الحرة الغالية المهر .



وأكثرهم فضلا عليه ومنه ، وأمثلهم في رأيه طريقا ، وأوفرهم  
شجاعة وحزما .

وهو في رثاء قتلى الحرة جازع متهاك ، نال منه المصاب ، وعز  
عليه العزاء فيه ، فلم يتكلفه ولم يلتمس سبيلا إليه ؛ فركبته الهموم  
واستبدت به ، وجعلت منه رجلا زاهدا ، مؤرقا ، متشائما ، كسير  
القلب ، شارد اللب ، لقس الحس ، لا يستطيب اللذائذ ولا يرى  
أن فيه بقية من صلاح للصبوة والإصابة من اللهو . يستطيب  
البكاء ؛ فيبكي ، ويستبكي . ويرى النساء باقيات مقسليات ، يندب  
القتلى ، ويعظم المروثة فيهم ؛ فيستزيدهن ، ويقبل عليهن يذكر  
لهن أسماء القتلى ، ويرغب إليهن أن يندبنهم واحدا واحدا ؛ فكل  
بذاك حقيق ، والمصاب فيه عظيم . وربما انكشف عنه الجزع ،  
وزايله اليأس ، فإذا هو حاقد مهتاج مورتور ، يتهدد واتريه بالانتقام  
جزاء وفاقا . قال :

ذهب الصَّبَا وتركت غَيْتِيهِ

ورأى الغواني شيبَ لِمَسْتِيهِ (١)

وهجرني وهجرتهن وقد

غَنَيْت كرائمها يطفن يه (٢)

(١) اللمة : اللعس الذي يجاوز شمة الأذن

(٢) غَنَيْت : أقلت أو اكتفت

إذ لقي سوداء ليس بها  
 وَضَحَ ولم أَجْعَ ياخوتيه (١)  
 الحاملين لواء قومهم  
 والذائدين وراء عورتيه  
 إن الحوادث بالمدينة قد  
 أوجعني وقرعن مَرَوْتِيَه (٢)  
 وَجَبَبْنِي جَبَّ السَّامِ فلم  
 يترك ريشا في مناكبه  
 وأنى كتاب من يزيد وقد  
 شُدَّ الحزام بسرج بغلتيه  
 يننى بنى عبء وإخوتهم  
 حل الهلاك على أقاريه  
 وننى أسامة لي وإخوته  
 فظللت مُسْتَكَا مساميه (٣)  
 كالشارب النشوان قَطَّرَه  
 سَمَل الزَّاق تفيض عبرتيه (٤)

---

(١) وضح : شيب  
 مروته : أنزلت به الليله  
 (٢) المروة : الحجر العلب ، وقرعت الحوادث  
 (٣) مستكا : استكت السامع : صمت  
 (٤) قطره : صرعه . سمل جمع سلة وهي في الأمل بقية الماء في الخوض

سَدِّ مَا يَعْزِئُنِي الصَّحِيحَ وَقَدْ  
 مَرَّ الْمُنُونُ عَلَى كَرِيمَتِهِ (١)  
 كَيْفَ الرِّقَادُ وَكُلَّمَا هَجَعَتْ  
 عَيْنِي أَلَمْ خِيَالٍ إِخْوَتِيهِ؟  
 تَبْكِي لَهُمْ أَسْمَاءُ مَعْوَلَةٌ  
 وَتَقُولُ لَيْلَى : وَارْزَيْتِيهِ  
 وَاتَّهَ أَرْحُ فِي مَقْدَمَةٍ  
 أَهْدَى الْخِيُولَ عَلَى شِكَايَتِهِ  
 حَتَّى أَجْمَعَهُمْ يَأْخُوتَهُمْ  
 وَأَسْوَاقَ نَسَوْنَهُمْ بِنَسْوَتِيهِ  
 وَقَالَ :  
 وَأَرْمَلَةٌ يَمْتَرِيهَا النَّجِيبُ  
 إِذَا نَامَتْ الْأَعْيُنَ النَّاعِمَةَ  
 تَبْكِي رِجَالَ بَنِي عَمِّهَا  
 وَإِخْوَتَهَا وَحَدَا قَائِمَهُ  
 فَيَا لَيْلَ بَكِيَّ أَبَا عَاصِمٍ  
 بَكَاءَ مُوَاسِيَةٍ دَائِمَةٍ  
 وَيَا لَيْلَ بَكِيَّ أَبَا مَالِكٍ  
 وَيَا لَيْلَ بَكِيَّ أَبَا فَاطِمَةَ

(١) سَدِّ مَا يَعْزِئُنِي ، حَزَنٌ فِي غَيْظٍ . كَرِيمَتُهُ : الْكَرَمَةُ ذُو الْكَرَمِ وَنَحْلَبُ . وَبَرِيدُ  
 بَكْرِيَّتِهِ مِنْ قَتْلِ مَنْ أَهْلِهِ .

ألدَّ إذا الخصم لم يستقم  
شديد القوى يدفع الضائمه  
وبكى أسامة للنائبات  
والدين والخطه الحازمه  
وبكى حسينا حسين الطعان  
إذا الخيل لم تنقلب سالمه  
رجال الثويعم لم ينكثوا  
جلادا عن الفئة الظالمه (١)

أما في رثاء مصعب فقد أغفل الحديث عن صداقته له ، وفضله عليه ، وأثره في نفسه ، وقصره على الجانب العام منه لا يعدوه ، كأنه في رؤية الجانب الوحيد الذي لا يصح لمن يرثيه أن يتعرض لغيره ، ولا أن ينظر إليه إلا منه ، ولا أن يقدر شأنه إلا به ؛ لأن المصيبة فيه أجل من أن تكون مصيبة الصداقة والأصدقاء ، وأجدر أن تكون قبل هذا مصيبة الدولة الناشئة ، التي كان إليه وحده حياطة أمنها وإقامة بنيانها ، وتأثيل مجدها ؛ بما كان يلزمه أبدا من التوفيق والظفر في ميادين السياسة والحروب . قال :

أتاك ياسر النبا الجليل  
فلكلِكَ إذ أتاك به طويل

أناك بأن خير الناس إلا  
 أمير المؤمنين بها قتيل  
 قتل لمن يخبرني حزينا:  
 أنتى مصعبا؟ غالتك غول  
 فإن يهلك جسدكم شقى  
 وعيشكم وأمنكم قليل  
 وإن يعمّر فإنكم بخير  
 عليكم من نوافله فضول  
 أغر تنفرج الغمرات عنه  
 كأن جبينه سيف صقيل  
 يُهاب صريف نايه ويُخشى  
 إذا عدّلت شقاشقها الفحول<sup>(١)</sup>  
 إذا نزلت به حرب ضروس  
 يُهاب الرزّ منه والصليل<sup>(٢)</sup>  
 مرى بالسيف درتها فدرت  
 فأمتست وهى عارفة ذلول<sup>(٣)</sup>

---

(١) الشقاشق جمع شفقة وهى ما يخرج البعير من فيه كالرّة إذا هاج ، وعدلت شقاشقها : أقامتها وقضت فيها

(٢) الرزّ : الموت يسع من بعيد  
 (٣) مرى الناقة : مسح خرعها لتدر . عارفة : متقادة .

أليس بصاحب الكذاب لما  
 أصاب الناس شؤبوب وييل<sup>(١)</sup>  
 وكاد نساؤم يلقين غيا  
 تُركن وفرّ عنهن البعول  
 وأرعنَ قد جررت إلى عدو  
 يزينه التأوه والصهيل<sup>(٢)</sup>  
 كأن زُهاءه لله حُجّ  
 توافى منهمُ بنى حاول<sup>(٣)</sup>  
 تضل العائد البلقاء فيهم  
 ويخطئ رَحْلَ صاحبه الزميل<sup>(٤)</sup>  
 كأن بجَفَفَات الخيل فيه  
 إذا مرت برازيقا فيُبول  
 سموتَ بهم إلى حيٍّ بعيد  
 لتَفْجَعَهُم وأنت لما فَعُول  
 ويننا أنت تُوجف مستهلا  
 بساحة أرضهم لمع الدليل<sup>(٥)</sup>

(١) الكذاب : المختار التقى على ما يظهر . الشؤبوب : الدفعة من الممر

(٢) أرعن : جيش له فعول

(٣) زُهاءه : زهاء الشيء : شخصه . وهو أيضاً العدد الكثير . حج : حجاج .

(٤) العائد : الحديقة النتائج من كل شيء . البلقاء : ما في لوتها سواد وياض الرحل

ما يستحب من الأثاث في السفر ، وما يحمل على ظهر البعير كالسرج أيضا .

(٥) أوجف الخيل : حلها على الأسراع .

وَأَنَسَ غَيْبَ رَايَةِ سَوَامَا

تَرَى قَطْعَ السَّحَابِ بِهَا يَزُولُ <sup>(١)</sup>

وَأَوْلَادَ الصَّرِيحِ مُسَوِّمَاتِ

تَسْبَارَى مِثْلَ مَا هَدَجَ الْوَعُولُ <sup>(٢)</sup>

أَبَسَ بِهَا الْفَوَارِسَ فَاسْتَطَارَتْ

تَسْبَارَى الْمُرْدَ بِالْجُذَمِ الْكُهُولِ <sup>(٣)</sup>

وربما أخذ في رثائه مأخذ الدراسة والبحث ، فيذكر أسباب هزيمته ، ويصف غدر أصحابه به ، ثم لا يكاد ينتهي به التبع والاستقصاء إلى هذه الغاية المفجعة حتى يتملكه الغيظ ، ويخرج السخط من هدوئه وتأمله ؛ فينقلب أثرا محققا ، يصبح بما كان لا بد واقعا بأعدائه من الويل والنكال ، لو أن الأورجوت من حوله على ما توجهه النخوة والوفاء . قال :

إِنْ الرِّزِيَّةَ يَوْمَ مَسَتْ سَكِينُ وَالْمُصِيبَةَ وَالْفَجِيعَةَ <sup>(٤)</sup>

بِأَنَّ الْحَوَارِيَّ الَّذِي لَمْ يَخْذُهُ أَهْلُ الْوَقِيعَةِ

غَدَرَتْ بِهِ مَضَرَ الْعَرَا قَ وَأَمَكَنْتَ مِنْهُ رِيْعَهُ

(١) السوام : المرائي . القطع : هو في الأصل ظلة آخر الليل ؛ والقطعة منه . والمراد أن السحاب الأدكن يحواري خلف الراية .

(٢) الصريح : خالص كل شيء ، والمراد بأولاد الصريح : الخيل الكرام الخالصة للنسب . مسومات : مملات . هجج : مشى فيه الشيخ .

(٣) أبس : أرسل وفرق . الجذم : القطع الصريح .

(٤) سكين : الموضع الذي كانت به الوقعة بين عد الملك ومعهب .

فأصبت وترك ياريب      مع وكنت سامعة مطيعه  
 يالهف لو كانت له      بالطف يوم الطف شيعه  
 أو لم يخونوا عهده      أهل العراق بنو السكيه  
 لو جدموه حين يف      ضب لا يُفَرِّج بالمُضيعة

## الفخر

أكثر غر ابن قيس كان بأهله وقومه . وقد غر بنفسه أيضاً .  
 ولكن في قصد واعتدال ، على صورة تجعله كالوصف البرى .  
 أو الحديث المجرد ، وفي نطاق معاملته للناس وعلاقته بالأصحاب ..  
 وهو في هذا وذاك متأثر بنظام القبيلة ، حيث تغنى شخصية الفرد  
 في شخصيتها حتى لا يكاد يظهر لها كيان خاص أو خصائص متميزة ..  
 فالروح الذى كان يسيطر عليه في الفخر هو الذى كان يسيطر  
 عليه في المدح ، فبين الفخر والمدح كما لا يخفى نسب موصول ..  
 قال في الفخر بأهله :

نحن الفوارس من قرى      ش يوم جـد لقائنا  
 وأعندنا رِفدا إذا      رَفَدَتْ بِرِفْدِ إناها (١)  
 وأعمها يسجـالها      وأضنها بدماها (٢)

(١) أعلما : أكثرهما . الرفد بالكسر : الجلاء ، وبالفتح القتح الضخم

(٢) السجال جمع سجل وهو العطاء . والدور العظيمة فيها ماء



وَأَحْسَهَا لِلنَّارِ لِي  
حِينَ الْقَتَارِ إِلَى الْفَتَا  
وَقَالَ فِي الْفَخْرِ بِنَفْسِهِ :

إِنِّي أَمْرٌ لَا يَطْبِي  
حَسَنَ الْخَلِيقَةِ وَالْمُودِ  
هَنَاتِهِ سَلْبِي وَأَعْدِي  
عَنْدِي لَجَامَ لِلرَّجَا  
مَنْ أُلْقِيَ فِي رَأْسِهِ  
وَيَلْنُ وَيَنْسَقُ لِي كَمَا  
نَحْنُ الصَّرِيحُ إِذَا قَرِيبُ  
مِنْ سِرِّهَا وَأَرْوَمُهَا

### الوصف:

كان ابن قيس مقلا في الوصف كما كان مقلا في الفخر، ولئن كان في الفخر محسنا مفتنا لقد كان في الوصف مقاربا قليل الافتنان. وربما بدا هذا من مثله عجيبا، فقد ساح في الأرض، وعاش بين سلاسل مختلفة، ورأى عجبا من ظواهر الطبيعة وآثار الماضين.

(١) حش النار : أوقدها . المر : شدة البرد

(٢) القتار : ريح القدر والقواء .

(٣) يطبي : يستميل

ورأى من مشاهد الحضارة والعمران ومعالن الغنى والخصب ،  
ومناعن الرفاهية والزرف . وتلك ولا شك مادة خيال ، وينبوع  
ثقافة . ولكن هيات أن تعمل عملها كله ، وأن تؤتي ثمرها كاملا ،  
أو على نمط واحد في كل حين وعند كل إنسان ؛ فإنما هي في ذلك  
على صلة وثيقة بمعدن الطبع ومبلغ الاتجاه وظروف الحال .  
وصاحبنا كان غريبا باديا ، لم تنهأ له بعد أسباب الانطلاق من  
قيود الفطرة البدوية في النظر والتفكير ، وفي التلقى والانفعال .  
وليس أشبه منه في ذلك كله بالطفل : تأخذه الظواهر الباهرة ،  
والألوان الزاهية ، والتهاويل العجيبة أكثر مما يأخذه روح الفن ،  
وبراعة الصناعة ، ودقائق الهندسة ، وتنبعث فيه نوازع التملك  
والانتفاع قبل أن تنبعث دواعي الاستلهاام والتخيل .

ولم يكن من هم صاحبنا على كل حال الدراسة والتأمل  
والاستيحاء ؛ لأنه لم يخرج سائحا متفرجا ، ولا باحثا منقبا ،  
ولكن عابرا متنقلا ، أو مقبلا لاهى الوعى مشغول البال . وقد  
فتنته المرأة ، واحتجته لها ، وقصرته عليها كما فعلت بسلفه من قبل  
لأنها كانت ولم يكن سواها من تماثيل الجمال ؛ فغلبت على قلوبهم  
ومواجدهم ، ولم تكذب تدع لغيرها منهم إلا اليسير . لذلك كله  
لا نرى في شعره عن البلاد التي زارها والمشاهد التي رآها هنالك  
إلا طائفة من الأسماء يسردها سردا مجردا ، أو مع شيء من البيان  
قليل ، كقوله يخاطب عبد الله بن جعفر :

ذكرتك إذ فاض الفرات بأرضنا

وجاش بأعلى الرقتين بحارها<sup>(١)</sup>

وقال من قصيدة في الفخر :

أقمرت منهم الفراديس فالغو

طلة ذات القرى وذات الظلال<sup>(٢)</sup>

فضمير فالماطرون فحورا

ن قفار بسابس الأطلال<sup>(٣)</sup>

ولقد بدا له أن يصف حلوان مصر لعهد عبدالعزيز بن مروان ،

فما زاد على أن ذكر أشجار الفاكية فيها ، وخاصة النخيل وما يتوارد

عليه ، أو يقيم فيه من حجاج وغربان . قال :

سقى لحوان ذى الكروم وما

صنّف من يئنه ومن عنبه

نخل<sup>٤</sup> مواخير بالفناء من الـ

برني غلب يهتز في شرّبه<sup>(٤)</sup>

(١) الرقتان : الرقة والراقصة ، وهما من أعمال الجزيرة ، واقعتان على ضفة الفرات ، وأبنتهما متصلة ، وبينهما ثلاثة ذراع . قال ياقوت : ... فأما الآن فإن الرقة خربت ، وغلب اسمها على الراقصة ، وصار اسم المدينة الرقة ١٠٠ هـ .

(٢) الفراديس : موضع قرب دمشق . القنطرة : مدينة دمشق ، أو كورتها .

(٣) ضمير : موضع قرب دمشق . المايطرون : قرية بالعام . حوران : كورة بدمشق . بسابس جمع بسيس وهو القفر الخالي .

(٤) مواخير جمع نيقار وهي المتعة بجمعها . البرني : نوع من الخمر . الشراب : حوض حول القنطرة بجمع ريبا .

أَسْبُودُ سَكَائِهِ الْحَمَامِ فَمَا

تَنْفَكْ غَرَبَانَهُ عَلَى رَطْبِهِ

ثم بدا له أن يصف السفن في النيل ، وهي مضعدة إلى خلوان ،  
تحمل أثقالا من نفائس المغرب بعد أن فتح الله بها الفتوح على  
موسى بن نصير ، فما كان نصيب السفن منه سوى نظرة معجلة ،  
ذكرته سحائب الصيف حين تمر في السماء على هيئة واطراد .  
أما حمولتها من الثياب والجواهر فقد وقف عندها ، يقلب النظر ،  
ويفصل الحديث على مقدار ما تنبأ له . فهي وحدها بفضل أشكالها  
الغريبة ، وألوانها الباهرة ، ونفاسها اليا لفة - حقيقة أن تثير اهتمامه ،  
وتقيد نظره ، وأن تبعث فيه رغبة وروعة وعجبا . وهذه ألياته فيها :

غَدَّوْا مِنْ مَدْرَجِ الْكَرِيُونِ

نَ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حَزْرُقُ (١)

كَمَا يَغْدُو نِشَاصُ مَنْ

عَمَابِ الصَّيْفِ مَنْطَلَقُ (٢)

فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَ النِّيلَ

نَلَّ وَالرَّايَاتِ تَخْتَفِقُ

رَأَيْتُ الْجَوْهَرَ الْحَكْمِيَّ

وَالدِّيْنَاجِ يَا تَلْقُ

(١) مدراج : ملهى ، ملك . الكريون : قرية قرب الإسكندرية حرق : جماعات .

(٢) النشاص : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بعده فوق بعض

وَحَزَرَ السُّوسَ وَالْإِضْرَ

بَجَ فَضَّلَ بَيْنَهُ السَّرَقَ (١)

وَحَمَلَ الْأَرْجَوَانَ عَلَى السِّ

فَيْنَ كَانَ الْعَلَقَ

سَفَاتِنَ غَيْرَ مُقْلَعَةٍ

إِلَى حُلْوَانَ تَسْتَبِقُ (٢)

وله بعد هذا مشاركة في الوصف التقليدي ، يجارى فيه مع كثير غيره شعراء الجاهلية وأشباههم من شعراء البادية في الطريقة والموضوع . ونحن إذ نسمعه في هذا النوع يصف دوارس المنازل وشواخص الأطلال ، أو يصف ركائب الإبل والحيل - يخيّل إلينا أنه واحد منهم ، يعيش معهم ، ويفكر كما يفكرون . ومن ذلك قوله :

يَاسْتَدُ الظَّاعِنِينَ مِنْ أَحَدٍ

حُسَيْبٍ مِنْ مَنْزِلٍ وَمِنْ بَنَدٍ (٣)

---

(١) السوس : يطلق على إقليبين في الجنوب الغربي من المغرب الأقصى : السوس الأدنى ، والسوس الأقصى . والاحمر يح : الحز الأحمر ، ويطلق على كباء أصفر . السرق : شقق الحرير الأبيض أو عامة .

(٢) مقلة : مرفوعة الشراع .

(٣) البند : ما قابل من الجبل وعلا عن المنح .

ما إن بمثواك غير راكدة  
 سُفَع وَهَابٍ كَانْفَرخٍ مُلْتَبِدٍ<sup>(١)</sup>  
 والنوى كالحوض خُط دون عوا  
 دى السيل منه ومضرب الوتد<sup>(٢)</sup>  
 والوحش فيه كأنه هَمَل  
 رعى بجو عواذب العُقد<sup>(٣)</sup>  
 أبْدَلَت عُفْرَ الظباء والبقر<sup>(٤)</sup>  
 مِينَ خِلافِ العقائل الخُرْد<sup>(٥)</sup>

وقوله :

كل خَيْفَانَةٍ مُجَنَّبَةٍ الرَّجْدِ  
 سَلِينٍ عَجَلِي خَفِيفَةٍ فِي الشَّهَالِ<sup>(٦)</sup>  
 مَرَّطِي الشَّدَّ كَالْعُقَابِ تَدَلَّتْ  
 بَيْنَ نَيْقَتَيْنِ مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ<sup>(٧)</sup>

- 
- (١) السفع : السود اللون إلى حمرة . الهاب : التراب .  
 (٢) النوى : الخنفير حول الحباء أو الحيمة يتبع السيل .  
 (٣) ممل : إبل متدوكة رعى بلا راع . جو : اسم موضع . العقد : الأماكن  
 الكثيرة الفجر والكلا .  
 (٤) عُفْرَ الظباء : يضربها التي ليست شديدة الياض ، أو البيض يلون يابغها حمرة .  
 الخرد : الأيكار ، أو الحيات يطن الكوت .  
 (٥) الحفاة الجرادة قبل أن يستوى جناحها ، وتذهب الفرس بها لحفها .  
 جنة الرجلين : عنتيها في شدة .  
 (٦) المرطى : ضرب من العدو . التيق : أرفع مكان في الجبل .

وهَزِيمٌ أَجَشُّ يَسْتَنُّ بِالْدَّاءِ  
 رَع يَوْمَ النَّهَابِ وَالْآتِفَالِ<sup>(١)</sup>  
 جُرْشُعٌ يَمْلَأُ الْحَزَامَ كَأَنَّهُ  
 يَجْهَدُ يَجْلُو أَدِيمَهُ بِصِقَالِ<sup>(٢)</sup>  
 بُدِّلَتْ بِالشَّعِيرِ وَالْخَفَضِ وَالْقَتِّ<sup>(٣)</sup>  
 وَمَسَحَ الْغَلَامُ تَحْتَ الْجِلَالِ<sup>(٤)</sup>  
 غَارَةَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَمَا تَهْ  
 سَجَ إِلَّا مُحِنَّةً لِقِتَالِ  
 قَدْ بَرَاهَا الْوَجِيفُ وَالْدَّأَبُ حَتَّى  
 هِيَ قُبُّ شَوَازِبِ الْآكَفَالِ<sup>(٥)</sup>

### الهجاء :

أسلفنا أن ابن قيس لم يكن بحاجة إلى الهجاء ، ولذا كان نصيبه من شعره أقل من نصيب كل غرض سواه . فليس له منه إلا بضعة عشر بيتاً : بعضها في هجاء مغتاب ذكره بالسوء ، وبهته بما ليس فيه ، والآخر في هجاء عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد ، وكان فيما يقول

( ١ ) الهزيم : الفرس القوي ، العديد الصوت . يستن : يمشي .

( ٢ ) الجرشع : الضخم من الخيل .

( ٣ ) القت : اسم نبات .

( ٤ ) قب : خوامر البطن ، دقاق الحصور . شواذب : خوامر .

الطبرى خرج يطلب الأزارقة ، فبعث إليه قطرى جيشاً ، ولما التقى الجيشان هزم عبد العزيز ، وسببت زوجته<sup>(١)</sup>

وهجاء ابن قيس على قلته يشير إلى ملكة فى التهم والنقد ، وقدره على الإيـجام فى الإـزاء والتلب ، وعلى حسن التمييز بين مقام ومقام .  
فى هجاء المغتاب وكان على ما يظهر من بحمل وصفه شيخاً معروفاً بالتدين والتقوى رماه بالافتعال ، وأخذ به بحكم القرآن على الغيبة والمغتائبين ، ثم سخر منه ، وعيره بأمه ، وهدده أن سيفع فى عرضه بما لا يصلح بعده أبداً ، ويومئذ يندم على إساءته إليه حيث لا يغنى الندم .

قال :

رُبَّ زَارٍ عَلَى لَمْ يَرِمْنِي  
عَثْرَةٌ وَهُوَ مِنْ أَسْ كَذَابِ  
خَادِعِ اللَّهِ حِينَ حَلَّ بِهِ الشَّيْءُ  
بِ فَاضَحِي وَبَانَ مِنْهُ الشَّيْبُ  
يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ يَسْبُرُوا وَيَنْسَى  
وَعَلَيْهِ مِنْ كَبِيرَةِ جَلْبَابِ  
أَيُّهَا الْمُسْتَحَلُّ لِحْيَ كُلِّهِ  
مَنْ وَرَأَى وَمَنْ وَرَأَكَ الْحَسَابِ



استفيقن فليس عندك علم  
لا تنامن أيها المغتاب  
تخيل الناس بالكتاب فهلا  
حين تغابني هناك الكتاب  
لست بالمخبيت التقى ولا المح  
ض الذي لا تدمه الأنساب (١)  
أتني والتي رمت بك كرها  
ساقطاً خفها عليه التراب (٢)  
لستومن غب رأك فينا  
حين تبقى بعرضك الأنداب (٣)

وفي الآيات الأخرى رمى عبدالعزيز بن عبدالله بأقبح ما يرى  
به الجندي من عيوب ، وحمله أهول ما يحمل القائد من تبعات .  
دماه بالجبن والنذالة والجزع عند اللقاء ؛ فذكر أنه لم يكذب يلتقي  
الجمعان ، ويستحر بينهما القتال حتى ركه الفزع ، وتملكه الذهول ؛  
فلاذ بالفرار ، لا يلوى على شيء ، ولا يفكر حتى في عرسه ؛  
فكانت المخزاة الباقية ، والكارثة المفجعة ؛ إذ وقعت زوجته في  
الأسر ، وحملت إلى غير بيتها ذليلة مقهورة . أما الجيش وقد تحلى

( ١ ) المخبت : الخاشع . المحض : الخالص . الغيب .

( ٢ ) التي رمت بك كرها : يريد بها أمه .

( ٣ ) غب : غاب . الأنداب : آثار الجروح الباقية على الجلد .

عنه قائده فقد تولت الفوضى أمره ؛ ففرقت جموعه ، وشردت جنوده ؛ فهاموا على وجوههم حيارى مذهولين ، والموت يأخذهم من كل مكان ؛ فيخرون صرعى بين قتيل لقي حتفه نخلص من عذابه ، ومحتضر يعالج سكرات الموت ، ويكابد من العطش آلاما شدادا .

قال :

عبدَ العزيز فضحتَ جيشك كلهم  
وتركتهم صرعى بكل سبيل  
من بين ذى عطش يَجُود بنفسه  
وَمُلْحَبٌ بين الرجال قتيل (١)  
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا  
إذ رحلت مُتَمَكِّثُ القوى بأصيل (٢)  
وتركت جيشك لا أمير عليهم  
فارجع بعارفى الحياة طويل  
ونسيت عرسك إذ تقاد سَيِّئَةٌ  
تُبْكِي العيون بِرَنَّةٍ وعويل  
وقد سبقت رواية آياته الثلاثة فى هجماء القباح من النساء ،  
ورأينا كيف أزرى بهن . وسخر منهن ما شاء ، فلا حاجة إلى  
إعادة روايتها هنا .

---

(١) ملحب : مقطع . (٢) متمكث القوى : منحلها .

## آراء القدماء في شعره نقدها والتعليق عليها

للقدماء في ابن قيس آراء ، وبينهم فيه خلاف . وليس هذا  
بعجيب ، بل العجيب ألا يكون ؛ فما كان ابن قيس نسكرة ؛ فيجهل  
ولا شعره رذلا ؛ فيغفل . وحقيق إذا كان الدرس والنقد أن  
يكون الخلاف في الرأي والتقدير . غير أن هذه الآراء على وجه  
الإجمال مطلقة ، يندر أن يقوم إلى جانبها حجج أو تعليقات ،  
فكأنها ضرب من القواعد المقررة أو الحقائق المسلية ، لا شك  
فيها ولا خلاف . ويندر كذلك أن تبرأ من الميل أو المحالة ؛  
فلثقافة الناقد وذوقه عمل فيها وتوجيه . وكثيرا ما تقوم على نظرة  
ضيقة ، أو ضرورة هيئية ، أو خلاف في الفهم ، أو مناسبة عارضة  
من المفاخرة أو الملاحاة .

هي إذا في جملتها أشبه باللبحات الخاطفة ، أو النظرات العابرة  
منها بالآراء المنحلة ، أو الخلاصات المصفاة ، ينتهي إليها الباحث  
بالدرس والموازنة والتحليل ؛ فلذلك يقوم بينها من الخلاف في  
بعض الأحيان ما لا يقوم إلا بين تقيضين . وسنعرض ما وقع  
لنا من هذه الآراء والمآخذ ، ثم تتبع كلا منها ما يبدو لنا من  
ملاحظة عليه أو تعقيب له .

فمنهم من يعدده شاعر قريش في الاسلام <sup>(١)</sup> غير مزاحم ولا مدفوع ، ولكنه لا يذكر لحكمه هذا سبباً ، ولا يقيم عليه دليلاً . والأصمعي ويونس لا يرياناه حجة ولا ثقة . وبينه الأول أنه منع مصعباً من الصرف في قوله :

ومصعب حين جد الأم سر أكثرها وأطيبها <sup>(٢)</sup>  
وبينه الآخر أنه استعمل (بالغ) مضارعاً لولغ، حيث يقول:  
ما مريوم إلا وعندهما لحم رجال أو يالغان دما  
كما جاء في بعض الروايات . وعنده أن ابن قيس إنما أصيب في لغته من أنه « شغل نفسه بالشرب في تكريت » <sup>(٣)</sup> .

فكلا الإمامين يحكم عليه بلفظة واحدة ، قد حسبه فيها خطأ ثم استباح بهذا أن ينكر فصاحته ، وينفي الصحة عن لغته ، كأنما كانت كلتا اللفظتين جماع الدخل والفساد ؛ فلا تغنى معها مزية ، ولا يشفع في صاحبها فضل . وهذا بلا شك إسراف ؛ فعثرة المرء أيا ما يكن نوعها ، وبالغة ما بلغت من الشناعة والقبح — لا يصح أن تصرفنا عن محاسنه ، ولا أن تحملنا على الغض منه واستصغار شأنه ، فكيف إذا كانت هيئة يسيرة ؟ أو صواباً خالصاً ؟  
فبلغ العلم في منع المصروف من الصرف أنه ضرورة ،

(١) الأغاني : ٥ : ٧٥ (٢) الموشع للرباعي : ١٨٦

(٣) الأغاني : ٥ : ٨٨

ولكنها ليست قبيحة منكورة ، بل لقد أجازها ثعلب وغيره في الاختيار<sup>(١)</sup> . وهي مع ذلك ليست نادرة ، وليس لابن قيس منها سوى هذه التي ينكرها الأصمعي عليه . وأما بالغ فصحيحة ، وقد رواها القاموس واللسان ، وإذا كان يونس لم يسمعها فليس الذنب في ذلك ذنب ابن قيس ، ولا تبعته عليه . ولو لم يكن لولغ مضارع غير بلغ لأمكن أن يظن بالشاعر أنه اضطر لإقامة وزن البيت أن يضع بالغ ، أو يولدها من بلغ بإشباع فتحة الياء . أما ولل فعل مضارع آخر وهو يولغ ، والوزن يستقيم به كما يستقيم ببالغ فلا نعرف سببا يمكن أن يحمله على هذا الافتعال .

ولا ندرى لماذا كانت إقامة ابن قيس بتكرير أو غيرها في مثل عصره ، ثم اشتغاله هناك بمعاورة الخمر مفسدة للسانه ، مذهب لأسباب الثقة به ، وقد اتثال الناس أفواجا من الجزيرة منذ فتح الله عليهم الفتوح ، يطوفون في الآفاق ، ويتنقلون بين مختلف البلاد ، وفيهم المتصون الجاد والعاث المتهاك ؟ أما لو صح الأخذ بهذا المبدأ وجرى الناس على التسليم به لكان عسيرا مجهدا أن نجد بين العرب لسانا صحيحا منذ تخطى الإسلام بهم حدود الجزيرة .

ويعده ابن سلام في شعراء الطبقة السادسة مع الأحوص ونصيب وجميل<sup>(٢)</sup> ولا خلاف أن الجمع بين ابن قيس والأحوص

(١) شرح الأشرقي لألفية ابن مالك : ٣ : ٢٠٨

(٢) طبقات الشعراء : ١٣٧

ونصيب من قبيل الجمع بين نظراء متقارين ؛ فهم على اختلافهم في الأسلوب والفن لم يقصروا أنفسهم على لون واحد من ألوان الشعر . ولعل من أبرز الخصائص التي تدل عليهم ، وتميز أشعارهم بالإضافة إلى ابن قيس وشعره أن الاحوص في جملة أرسن شعرا ، وأبين خولة ، وأنقر فنا ، وأن النصيب لا يدانيه رقة دياجة ، وحلاوة نغم ، وخفة موسيقا .

وأما جميل فهو معهم غريب ؛ لأنه شاعر غزل ، لا يكاد يفارق الغزل ، وإن يفعل فبدافع منه في الواقع <sup>(١)</sup> ؛ فهو إذا ميدانه الوحيد الذي لا يلقى أحدا من طبقة إلا فيه . وهو إذ يلقى ابن قيس فيه موضوعا يفارقه عاطفة ووجدانا ، ويفارقه طبعاً وفناً . لجميل أصدق هوى ، وأرق صباية ، وأسمى في الحب منزعا وابن قيس أدمث طبعاً ، وأعذب روحاً ، وأتق فنا ، وموسيقام أوفر حركة ، وأنشط انبعاثاً ، وأسرع تموجاً واهتزازاً .

وقال سعيد بن المسيب لنوفل بن مساحق : يا أبا سعيد . من أشعر : أصحابنا أم صاحبكم ؟ يعنى عبيد الله بن قيس الرقيات ، أو عمر بن أبي ربيعة ، فقال نوفل : حين يقولان ما ذا ؟ فقال : حين يقول صاحبنا :

خيلى ما بال المطى كأنما  
 نراها على الأدبار بالقوم تنكص  
 وقد أبعد الحادى سُرَاهن واتحى  
 بهن فا يالو عجول مُقلَّص<sup>(١)</sup>  
 وقد قُطعت أعناقهن صباة  
 فأنفسنا مما تُكلف شُخص  
 يزدن بنا قربا؛ فيزداد شوقنا  
 إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ويقول صاحبكم ما شئت . فقال له نوفل : صاحبكم أشهر  
 بالقول فى الغزل ، أمتع الله بك ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر<sup>(٢)</sup>  
 ويبدو ابن المسيب فى كلامه هذا أشبه بالمفاخر منه بالمناظر ،  
 وإلا فما باله عدل عن التصريح باسمي الشاعرين إلى التكنية عنهما  
 بصاحبنا وصاحبكم ؟ وكيف يستقيم التحدى بالمقطعة الواحدة من  
 شعر عمر لكل مالا بن قيس من شعر دون تحديد ؟ والشاعران بعد  
 مختلفان اختلافا كبيرا . وإنما يكون التفاضل جدا من الأمر ،  
 وعملا من الأعمال ذات الشأن حين لا يكونان كذلك ؛ حتى  
 تنهى المقابلة ، ويمكن الاستخلاص والحكم . وليس المقطعة

(١) مقلَّص : شعر

(٢) الأعراب : ٥ : ٩٢

أو القصيدة يقولها الشاعر ، ولا يكون لنده مثلاً بكافية في تفضيله  
والحكم له . فربما يكون للآخر قصيدة أو قصائد هي في موضوعها  
أبرع من تلك في موضوعها ، وأدل منها على البراعة والامتيّاز .

أما مساحق فقد أصاب المحز ، ووقع في كلامه على الرأي ،  
فعمر شاعر الغزل قد أكثر منه واشتهر بين الناس . أما ابن قيس  
فصاحب فنون شتى ، فأنى يلتقيان على النحو الذي يريد سعيد ؟  
ومساحق كما ترى يتجه إلى الشعراء أكثر مما يتجه إلى الشعراء .  
ولو شاء لوجد السبيل ميسرة للكلام عنهما في الغزل ؛ فلا بن قيس  
فيه مشاركة حسنة وشأن مذكور .

واستنشد ابن أبي عتيق كثيراً ؛ فأنشده قوله : « أبائنة سعدى  
نعم ستين ، حتى إذا بلغ إلى قوله :  
وأخلفن ميعادى وخنّ أمانتى

وليس ابن خان الأمانة دين

فقال له ابن أبي عتيق : أعلى الأمانة تبعها؟ فانكف ، واستغضب  
نفسه ، وصاح ، وقال :

كذبن صفاء الود يوم محله

وانكذتنى ، من وعدهن ديون

فقال له ابن أبي عتيق : ويلاك ، هذا أملح لمن ، وأدعى



للقلوب إلهين . سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك ، وأوضح  
للضواب موضعه فيهن . أما سمعت قوله :

حب ذاك الدل والغشج      والى في عينها دَعَج  
والى إن حدثت كذبت      والى في وعدها خَلَج  
وثرى في البيت صورتها      مثل مافي البيعة الشرج  
خبروني هل على رجل      عاشق في قبلة حرج  
فسكن كثير ، واستحلى ذلك وقال : لا إن شاء الله . فضحك  
ابن أبي عتيق حتى ذهب به <sup>(١)</sup>.

والواقع أن كثيرا غير مخطيء ولا ملوم ، إذ يشكو في البيت  
الأول أن صواجه أخلفن موعده : وخن أماتته . فالحلف وخيانة  
الأمانة يعقبان بلا شك خيبة مرّة وألما شديدا . ولا ندرى ماذا  
عليه لو تبعهن على رجاء من الوفاء ورعاية الأمانة؟ أليست المتابعة  
على اليأس لا تكون لغير مدله مسلوب الإرادة والتفكير؟ وإذا  
لم يكن كثير كذلك في الواقع فهل زبده عليه بالرغم منه؟

أما البيتان الآخران فليس منشأ الخلاف بينهما الخطأ والخطل  
في بيت كثير ، والإصابة والتوفيق في بيت ابن قيس . كلا ، ولكن  
منشأه فيما يظهر اختلاف الشاعرين في النظر والإحساس ؛ فكثير  
نظر إلى كذب صواجه من ناحية صلته بالود وعمله فيه ؛ فرآه

آفة له ، إذا أصابته عاتت فيه وعكرت صفوه ؛ فأنكره وضاق به . أما ابن قيس فنظر إليه من ناحية دلالاته والمراد به ، فرآه دلالة لا إخلافا ، وأدرك أن المراد به الترغيب والإغراء وليس الصند والهجران ؛ فاستملحه ، وكلف به . وكلاهما في بيته صحيح النظر صادق الإحساس .

وروى صاحب الأغاني هذه الآيات ، وهي بما قال ابن قيس في عبد الله بن جعفر :

تَقَدَّتْ فِي الشَّيْءِ نَحْوُ ابْنِ جَعْفَرٍ  
سِوَاهُ عَلَيْهِمَا لَيْلِيَا وَنَهَارَهَا  
تَزُورُ أَمْرًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ  
تَجُودُ لَهُ كَفٌّ بَطِيءٌ غَرَارَهَا (١)  
وَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ جَعْفَرٍ  
لَكَانَ قَلِيلًا فِي دِمَشْقٍ قَرَارَهَا

ثم روى أن البيت الأول مما عيب على ابن قيس ؛ لأنه نقض صدره بعبزه ؛ فقال في أوله : إنه سار سيرا بغير عجل ، ثم قال : سواء عليهما ليليا ونهارها . وهذا غاية الدأب في السير ، فتناقض معناه في بيت واحد (٢) .

(١) الترادف في الأصل : منع الناقة درتها ، فلتراد ببطيء منها المعروف كما يقول صاحب الأغاني  
(٢) الأغاني : ٥ : ٨٦

فنفقد البيت كما ترى مبنى على أن (تقدت) فيه بمعنى سارت غير معجلة ، وهو معنى صحيح ، لكنه ليس المعنى الوحيد ؛ ففي اللسان : تقدت به دابته : لزمت سنن الطريق ، وتقدى به بعيره أسرع . وإذا لا تناقض في البيت ولا خلاف . على أن الاضطراب إلى الدأب في السير لا يستوجب حتما الإسراع فيه ؛ فقد يؤثر المسافر لسبب ما أن يسير طويلا في هيئة ورفق على أن يسير قصيرا في إسراع وعنف .

وروى الأغاني أيضا : أن ابن قيس مر بابن أبي عتيق ، فلم عليه ، فقال : وعليك السلام يا فارس العمياء ، فقال له : ما هذا الاسم الحادث يا أبا محمد بأبي أنت ؟ قال : أنت سميت نفسك حيث تقول : سواء عليها ليلا ونهارها ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . قال : إنما عنت التعب . قال : فينتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه <sup>(١)</sup> .

وكلام ابن أبي عتيق يشبه أن يكون هزلا لا جداء ، أو مداعبة لا نقدا إلا حين تتجاهل المقام ، ولا نقيم لدلالته وزنا . فالشاعر فيما يظهر لا يقصد إلى وصف المطية ، ولكن إلى الرثاء لها والشفقة عليها ؛ لكثرة ما احتملت من عنت السير وبعد الطريق ، وذلك دأب الشعراء المادحين في كثير من الأحوال . فكيف إذا

(١) المصدر السابق : ٨٩ .

يصح في الفهم أن سواء عليها ليلاً ونهارها تدل على أنها عمية ،  
قبل أن تدل على أنها لاغبة مكدودة ، لا تكاد تظفر بهداة يسيرة  
في ليل ولا في نهار ؟ وكيف يكون هذا المعنى من الخفاء بحيث  
يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه ؟ لاكثر الكلام إذا لا يستقبل  
بالدلالة والإفهام .

وروى المرزباني أن الأصمعي لحن ابن قيس في قوله :  
تبكيكم أسماء مَعُولَةٌ وتقول ليلى : وارزيتني  
قال : وكان ينبغي أن يقول : وارزيتناه ، كما تقول : واعماه ،  
واأخياه <sup>(١)</sup> .

والواقع أن ابن قيس لم يلحن ، ولا أن الوجه الذي طاب به  
الأصمعي واجب ، فالمندوب هنا مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد أجراه  
الشاعر مجرى المنادى ، فلم يلحقه الألف . وهذا جائز ، ولو أنه  
غير الغالب ، ثم زاد هاء السكت في آخره ، كما زادها في سائر القوافي <sup>(٢)</sup>

(١) الموشح : ١٨٦

(٢) راجع باب التذبة في شرح التصريح على التوضيح .

## ضرورات شعره

مامن شاعر ولا ناثر إلا تعرض له ضرورات التعبير فيما يعالج من قول ، كما تعرض ضرورات العمل لكل عامل في هذه الحياة .

وضرورات الشعر أكثر عددا ، وأصعب مراسا ، وأدق مسالك من ضرورات النثر ؛ لأن الشعر مثقل بالقيود ، والنثر مطلق إلا من قيود الذوق الأدبي ، والعرف المتوارث في الصياغة والتأليف . إلا أن مواقف الشعراء من الضرورات يختلف باختلاف كبيرا فمنهم الدمث الوداع الرقيق ، أو المتوجس الحذر الشديد المبالاة . وكلا هذين لا يسكت عن الضرورة ، ولا يطبق احتمال تبعثها ، ولا يرضى أن يعنى قراءه بأثقالها ، فلا يزال يحتمل لها ، ويترقى بها حتى يخلص منها . وإلا فبقيا لاضرورة فيه كفاية وغناء ومنهم المعتر بنفسه القليل التفكير في قرائه ، أو المعجب بأدبه ، الشديد الحرص عليه والإيثارة له . وكلا هذين لا يرى واجبا أن يتخلص من الضرورة ، أو أن يستغنى عما وقعت فيه ، فهو يبقى عليها ويخرجها للناس .

وترجع الضرورة في منشئها إلى كلال لذهن ، أو فتور الحس أو قلة الثراء من اللغة ، أو صعوبة الفكرة ، أو قلة فضجها ،

أو نحو ذلك . وهي درجات بعضها فوق بعض ؛ فمنها الخفيفة اليسيرة ، ، لا تكاد تستوقف النظر ، أو تثير الإنكار ، أو تدل على مكابدة واضطرار . ومنها الفريدة البلقاء ، تسرع إلى الذهن ، وتشيع في الناس ؛ فكاهة مجلس ، ومثار تندر واستضحاك . ومنها الدميعة الوقاح ، يتقبض لها الصدر ، وتكاد تغثي منها النفس .

ولا ينبغي كاتبة ما كانت أن تغفل أمرها ، ولا أن تجاوز بها طورها في ميزان المفاضلة والتقدير ؛ فإنما هي هنة أو عثرة ، والإنصاف والحكمة يوجبان أن نقدرها بقدرها ، وأن نضعها بموضعها ، غير معرضين عن حسابها ، كأن ليس لصاحبها إلا المحاسن خالصة ، ولا مبالغين في تصويرها والتعليق عليها ؛ كي لا نجور على محاسنه ، وتصر من قدرها ، فإذا هي كاسفة متضائلة . وضرائر ابن قيس قليلة ، وهي على قلتها هينة ، ونظائرها في الشعر كثير . وأظهر ما يعرض لنا منها :

١ — تكرار بعض معانيه وألفاظه . وأكثر ما يكون ذلك حين لا يتنوع الموضوع . وربما امتد فكان في عدة أبيات ، وربما قصر فكان في بيت أو بعض بيت . وهو على كل حال إثارة ضيق وإقلال ، أو عجب وانخداع . وأيا ما يكن سببه فليس بينه وبين البراعة والتوفيق نسب ولا صلة ، وليس يلقي من القارىء ارتياحا ولا إقبالا . وقد يغتفر للناس المتكاف . أما المجرب المطبوع فيبهات

فمن تكرراره قوله في مدح بني أمية :  
 إن جلسوا لم تَضِقْ مجالسهم  
 والأسند أمد العرين إن ركبوا

فهو مكرر مع قوله في مدحهم أيضا :  
 إن جلسوا لم تَضِقْ مجالسهم  
 أو ركبوا ضاق عنهم الألق

وقوله يمدح عبد العزيز بن مروان :  
 وَمَنْ تُفِيضَ النَّدَى يَدَاهُ وَمَنْ  
 يَنْتَهَبُ الْحَمْدَ عِنْدَ مُنْتَهَاهِ

فهو مكرر مع قوله يمدحه أيضا :  
 يَنْتَهَبُ الْحَمْدَ بِالْيَدَيْنِ كَمَا  
 نَاهَبَ فُرْسَانُ غَارَةِ نَعَمَا  
 وقوله يمدح عبد الله بن جعفر :

حَلَّ فِي الْجَوْهَرِ الْمَهْذَبِ مِنْهَا  
 شَمُّ أَهْلِ النَّدَى وَأَهْلِ الْعَفَافِ  
 عَوْدُهُ فِي الْكِرَامِ عَوْدَ نَضَارِ  
 لَا كَيْدَانَ خِرُوعٍ وَخِلَافِ  
 يَهَبُ الْخَيْلَ وَالْوَلَاتِدَ وَالْبُخْدَ  
 تَبَاجُلَهَا مَعَ الْأَخْفَافِ

فإنه مكرر مع قوله يمدح عبد العزيز بن مروان :  
 وأنت في الجوهر المهذب من  
 عبد مناف يداك في سيبه  
 يَخْلِفُكَ البيض من بينك كما  
 يُخْلَفُ عود النصار في شُعْبِهِ  
 ليسوا من الخروع الضعيف ولا  
 أشباه عيّدانه ولا غَرَبِهِ  
 وقوله يمدح عبد الله بن جعفر :

لم أجد بعدك الأخلاء إلا  
 كَيْمَادَ بِهَا قَذَى أَوْ نِقَاعٌ<sup>(١)</sup>  
 فهو مكرر مع قوله في رثاء طلحة الطلحات :  
 لم أجد بعدك الأخلاء إلا  
 كَيْمَادَ مَزُوحَةٍ وَقَلَاتٍ<sup>(٢)</sup>

٢ — التضمين ، وهو تعليق البيت بتاليه ، فلا يستقل الأول  
 بأداء معناه ، ولا يتم المراد به إلا مع الآخر . وهو عند صاحب  
 المثل السائر غير معيب ، فالوقوع فيه ليس ضرورة ، ويحتاج لذلك  
 بأمرين : الأول ، أن البيت من البيت في الشعر بمنزلة الفقرة من

(١) القاد : الماء القليل لامادة له ، النقا : جمع قع وهو التبار

(٢) قلات : جمع قلت وهو الثغرة في الصخر .



الفقرة في السجع . أو ليس الشعر فيما يعرفون هو الكلام الموزون المقفى يدل على معنى ، والسجع هو الكلام المقفى يدل على معنى ؟ فقد انحصر الفرق بينهما إذا في الوزن ولا مزيد .

وقد وقع التضمن في غير موطن من سجع الكتاب الكريم ولو كان عيباً ما وقع فيه ، فلا كلام أفصح من كلام الله ، ولا إمام أحق منه بالأسوة والاتباع .

قال تعالى في سورة الصافات : « فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ : أَنتَ كَ لَمِ نِ الْمَصْدُوقِينَ ، أَتَدَّأ مَتَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتَنَا لَمَدِينُونَ . »

فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتالي تليها . وقال في هذه السورة أيضاً : « فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ، مَا أَتَمَّ عَلَيْهِ يَفَاتِنِينَ ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ . » فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى .

وقال في سورة الشعراء : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَسَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَسَّحُونَ . » فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية منها إلا بالثالثة . ألا ترى أن الأولى والثانية في معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو في الثالثة ؟

قد تبين من هذه النصوص أن التضمن سائغ في فقار السجع ،

وتبين مما سلف أن علاقة هذه الفقار بعضها ببعض تشبه علاقة  
الآليات بعضها ببعض . فإذا ساغ التضمن في السجع فهو حقيق  
أن يسوغ في الشعر بحكم المشابهة والقياس .

والأمر الآخر أن العرب قد استعملت التضمن كثيراً ،  
وورد في أشعار فحول الشعراء ، من أمثال امرئ القيس ،  
والفرزدق ، وبعض شعراء الحماسة .<sup>(١)</sup>

والواقع أن الفرق بين السجع والشعر عظيم ، وأنه لا ينحصر  
في الوزن ، ولكن يقع فيه وفي جوانب أخرى : يقع في الباعث  
على استعمال كل منهما ، وفي الغاية التي تراد به .

فالنثر يستعمل في الأصل لأنه أكثر انطلاقا ، وأرحب ميدانا ،  
وأيسر علاجا ، ويقصد به إثارة تفكير المخاطب ، وحمله على  
الاقتناع بالمراد . والشعر يستعمل في الأصل لأنه لغة العواطف ،  
وترجمان المشاعر ، ويقصد به إلى التأثير في المخاطب ، وتحريك  
مواجهه على النحو المنشود .

ويقع الفرق أيضاً بين النثر والشعر في المادة والسمت ، فالنثر  
يعتمد في أكثر الأمر على الفكسر المجردة ، والحقائق الخالصة .  
والغالب على سمته السباحة واليسر في الصياغة والتعبير . والشعر

( ١ ) المثل السائر في أدب الكاتب والقاص : ٤٥٨ ، ٤٥٩ بتصرف .

يعتمد في أكثر الأمر على الخيال ، والغالب على سمته الأناقة والترفع ،  
وابتغاء الافتنان والتصنيع .

وربما خطر هنا بالبال أن بعض كفار العرب كان يزعم النبي  
شاعرا ، والقرآن شعرا ، مع أنه ليس بجعا كله . وقد يكون في  
هذا الزعم ما يشعر بالتقارب بين الشعر والنثر عامة ، وبينه وبين  
السجع خاصة فهل من حرج على من يميز في الشعر بعض ما يميز  
الاستعمال الفصيح في السجع ؟

وعندى أن هذا الخاطر ليس بذى شأن هنا ولا قيمة ، فما كان  
صاحب هذا الزعم يصدر فيه عن بينة ووعى ، ولكن عن حيرة  
وذهل ، أو ما هو شر منها ، كدأب آخرين زعموا النبي ساحرا ،  
وزعموه مجنونا ، وقالوا عن القرآن : إفاك اقتراه ، وأعانه عليه  
قوم آخرون . وقالوا عنه : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه  
بكرة وأصيلا .

ولعل أكثر ما يدل عليه هذا الخاطر إذا لم يكن بد من أنه  
تكون له دلالة هنا — هو أن الوزن لا يعد الفارق الوحيد بين  
الشعر والنثر : يجمعه ، ومرسله ، بل لعله لا يعد الفارق الذى ليس  
أجل منه بين سائر الفروق . وإلا كان معنى قول القائل : إن القرآن  
شعر — أنه موزون . وهيئات . فهو عربى ، يعرف لغته ، ويميز  
شعرها من نثرها ، ويفرق بين الموزون منها وغير الموزون .

ولو فرضنا أن هذا هو معناه الذى يريد ما استحق عليه ردا  
حولا تنفيذا ؛ فإ يقول بهذا إلا جاهل أو مجبول ، وكلاهما لا يظن  
بأحد أن يستمع له ، أو يقبل منه . لسكننا نرى القرآن قد عني به ،  
خورد عليه ، إذ يقول : « وما علنناه الشعر ، وما ينبىء له ، » .

هناك إذا اعتبارات غير الوزن ، هى التى جالت فى نفس هذا  
الزاعم ، وسولت له أن يقول ما قال . وعلى هذا لا يتوجه النفي فى  
الآية إلى الوزن وحده ، ولا يقع عليه أولا ، ولكنه يتوجه أيضا  
إلى هذه الاعتبارات ، ويقع عليها قبل كل شيء .

وأما تكن الحقيقة فى هذا الخاطر وما ينطوى عليه ، ففى  
سواء شاهد على أن الوزن فى الشعر ليس كل شيء ولا أهم شيء .

فقد رووا أن غلاما من ولد حسان وصف حيوانا لسنه ،  
فقال : كأنه ملتف فى بردى حبرة . فصاح أبوه : « شعر ورب  
السكبة » . (١) يرى أن ولده قد صار شاعرا ، أو يرجى على الأقل  
أن يكونه ؛ من أنه آنس منه مخايل القدرة على التخيل والتصوير .  
وهما عنده مادة الشعر وأداته ، فن أوتيهما فقد أوتى الشعر ، ومن  
حرهما فليس منه فى شيء . وأما غيرهما فأقل من أن يحسب له فى  
هذا المجال حساب ، أو يكون له فيه خطر مذكور .

وكان فصحاء العرب يؤثرون إقامة المعنى على إقامة وزن الشعر ؛  
 فيزيدون عليه ، وينقصون منه ؛ ليحىء معناه على ما يريدون .  
 وبما يروون في ذلك أن عليا رضي الله عنه أتى بابن ملحج ، وقيل  
 له : إنا قد سمعنا من هذا كلاما ، فلا تأمن قتله لك . فقال : ما أصنع  
 به ؟ ثم قال رضوان الله عليه :

اشدد حياز يملك للوت فإن الموت لا قبكا  
 ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك  
 والبيت الأول كما ترى لا يستقيم وزنه إلا بحذف كلمة ( اشدد )  
 منه ؛ فيصير هكذا :

حياز يملك للوت فإن الموت لا قبكا (١)  
 وقد يبدو غريبا أن يحرص الإمام هكذا على ذكرها ، مع أن  
 الوزن لا يحتملها ، والأسلوب في غنى عنها ؛ لدلالة العبارة عليها .  
 غير أن ثمة اعتبارات المقام ، فالظاهر أن الإمام رأى أن يختصها  
 بالقصد ، ويؤثرها بالرعاية على كل شيء ، وقد استجاز من أجلها  
 ذكر هذه الكلمة ، وهي كما سلف مقولة كمحذوفة ، وليس لها مع  
 ذلك في البيت مكان .

لقد جاءوه بابن ملحج ، وإنهم عليه لساخطون ، يريدون عن

بينة وفي غير هوادة أن يؤخذ بنيته قبل أن تصبح جرما واقعا ،  
فقد سمعوا منه كلاما لا يقوله إلا عدو غادر ، يسر البغضاء ، ويحكم  
السكيد ، ويتربقب الفرصة أن تمكنه مما يريد .

فلم يكن بد أن يجمع الإمام فم ، ويستعين عليهم ما وسعه الجمع  
والعون . عسى أن يطغى ثورتهم ، ويرد إلى نفوسهم الثقة واليقين ؛  
فيأخذوا مثله أهبتهم للموت ، ويروضوا أنفسهم على الرضا به ،  
والتسليم لقضاء الله فيه ، مصيرا محتوما لامفر منه ولا نجاة .

فألقى إليهم كلامه واضحا محدودا ، لا يريد أن يضيعوا في تأمله  
وأعمال الفكر فيه وقتا ولو يسيرا ، فجاء البيت على ما رأينا .

أفصح بعد هذا كله أن يقال : إن الشبه بين السجع والشعر  
بحيث يستطيع أن يعدل كلا صاحبه في الاعتبار والحكم ، فما يسوغ  
في الأول مثلا بحكم الاستعمال المأثور ، يسوغ في الآخر بحكم  
المشابهة والقياس ؟

وما أدرى كيف لا يكون فرق بين ارتباط الفقرة بالفقرة في  
السجع ، وارتباط البيت بالبيت في الشعر كما يقول صاحب المثل السائر ؟  
فمثل البيت في القصيدة كمثل اللؤلؤة في العقد ، ولهذا شبهوها  
به ، وخلصوا من أوصافه عليها ، يريدون أن كلا طائفة من وحدات ،  
تستقل شكلا ، وتتوالى وضعاً ، وتتساق نظماً لغاية تراد .

ثم إن السامع في القصيدة يتربقب المعنى ، ويتتبع صورته أكثر

بما يترقب الموسيقا ، ويتتبع أنغامها ؛ لأن تجربته معها تجعله يتوقع أن يجيء في كل بيت معنى جديد ، ولا تجعله يتوقع أن يجيء في كل بيت نسق من الموسيقا جديد ، فقد مضى العرف الشعري أن يجيء القصيدة على نسق من الموسيقا واحد بدأ في المطلع جديدا ، ويتدرد في سائر الآيات معادا .

فالسامع حيال المعنى مدرك متفهم ، وحيال الموسيقا متابع مستسلم ، يرسل نفسه مع البيت ما كانت له بقية ، فإذا أتت القافية وقفت عندها ، ريثما تضم شتاتها ، وتأخذ أهبثها البيت الذي يليه ، فإذا صارت إليه كان شأنها معه كشأنها مع سابقه ، وهلم جرا ، حتى تبلغ الحتام .

فإذا هي أخذت بالتضمين في القصيدة أصابها منه مثل ما يصيب الماضي في بعض الطريق ، يبلغ منزلا من منازلها ، فهم بالنزول فيه ، ولكن يمنعه مانع منه .

فالبيت في القصيدة كالمرحلة في الطريق ، وقافية البيت كنهاية المرحلة . وقد اعتاد السامع كلما بلغ قافية أن يقف عليها ، لكن التضمين يبطل صلاحها للوقف ؛ لأنه يصيرها خطوة في مرحلتها ، وإن كانت لنهاية لها ، فالسامع حين يدركها يحس أنه مدفوع عنها ، ومضطرب إلى اجتيازها ، تشوقا إلى بقية الكلام ، والتماسا لنصيبتها من الفائدة .

بقى مما يحتاج به صاحب المثل السائر لرأيه في التضمين — أن  
العرب أكثرث منه ، وأنه واقع في أشعار الفحول .  
وما أرى في هذا خصوصية يمكن أن تجسدى على التضمين ،  
أو أن تغير من حقيقة الرأى فيه . فذلك دأب الضرورات أبدا ،  
ما منها إلّا لها في الشعر ذكر ، ولها منه شاهد . وليس الاستكثار  
من ضرورة ولا وقوعها في شعر الفحول بالذى يخرجها من  
الضرورات ، ويجعلها في المباحات ؛ لأن الكثرة نسبية لا مطلقة  
وليست حولة الشعر في سلامته من الضرورة ، ولا فسولته آتية  
من التورط فيها وكفى .

فلكل شاعر فحل نصيب من الضرورات أو يكاد ، بل ربما  
كان الفحول أجراً من غيرهم على الضرورة ، وأقل منهم مبالاة بها ،  
وتحرزا منها .

على أن بعض الضرورات أقبح من بعض ، ومنها ما يخف حيناً ،  
ويثقل حيناً آخر . ومن الخفيف المحتمل من التضمين قول  
امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصليبه

وأردف أعجازا وناه بكلكل :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

بصبح وما الإصباح منك بأمثل



فشائع معتاد أن يسكت المتكلم سكته خفيفة عند مقول القول.  
حين تسكث من قبله الفضلات ، وتتوالى القيود ؛ إيدانا بأنه قد  
خلص إلى بقية الفائدة ، وأشرف على مكانها ؛ فوشك أن ينطق بها .  
ومن الثقل المستكره قول الخامس :

لعمري لرهط المرء خير بقية  
عليه ، وإن عالتوا به كل مركب  
من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى

جزيل ، ولم يخبرك مثل مجرب  
فقيح مسترذل أن يقف متكلم على اسم التفضيل أو بعض متعلقاته  
كما هنا ، ثم يبدأ بالمفضل عليه ، كأنه فائحة كلام جديد . فليس  
كمثل هذا تقطيع متصل ، ولا مباعدة بين متلازمين .

ومن تضمين ابن قيس قوله :  
تقول سلى : ألا تنام إذا  
نمنا ؟ فقلت : الهموم والأرق  
تمنعني ، وادّكار نصر بني  
عمي إذا حل جاري الرهق

وقوله :

تَقَنَّ الله في رَقِّي واجشني  
عقوبة أمرنا لا تقتلنا

بميشك وارفقي بي أم عمرو  
ويوم رجال أهلك يَنْذُرُونَا  
دِي ، ثم اندخلت إليك حتى  
تخطيت النيام الحارسينا

وكلاهما كما ترى من التضمين القبيح .

٣ — الإقواء ، أى اختلاف حركة الروى . وهو أيضا من  
أسباب تخالف النسق والتنغيم عند المقاطع ، ومنه فى شعر  
ابن قيس الرقيات :

فأ كان من ذكوان ذنب لدعوة  
دعوها ، ولكن ابن حيدة واهنُ  
فلو أسمع الجحاف أو نال صوتها  
صبيح بن خولى لعزّ الطعائن  
فقلت لها مسيرى ظعين فلن ترى  
بعينيك ذلا بعد مرج الضيائن

وقوله :

أو قدّتها بالمسك والعنبر الرط  
ب فتاة قد ضاق عنها الإزارُ  
تسقى بالحرير من وهج الشم  
س وخزّ العراق والامستار

٤ - تسهيل همزة القطع ، وقطع همزة الوصل . والجمع بين هاتين الضرورتين في مكان لا يعنى أنهما تتفقان في الدلالة وتغير النطق . فالواقع أن الأولى تدل على السجاجة واليسر ، بل الرقة والظرف أكثر مما تدل على الاضطراب والاستباحة . حتى لقد يسبق إلى الهم أن الشاعر لم يتورط فيها تكلفا واعتسافا ، ولكنه سعى إليها قصدا واختيارا ؛ إشارا للتي هي ألين وأخف مثونة وأداء ؛ لكثرة ما جاء به منها ، ونادرة ما جاء به من الأخرى . ومثالها قوله :

حَيَّ الاختين قد أحسَّ الفراق  
ودنت رحلة لنا وانطلاق<sup>(١)</sup>

وقوله :

إن الخليل قد ازمعوا تركي  
فوقفت في عرصاتهم أبكى

وقوله :

وقالت : لو انا نستطيع لزاركم  
طيبان منا عالمان بدائنا

إلى أن قال :

وقد كان قومي قبل هذا وقومها

قد أوزوا بها عودا من المجد تامكا (١)

وقد يصطنع التسهيل في كلمة لا عهد لها به ، ولا يدور في الظن أن يصطنع فيها . وقد يرهق به أخرى فيحيف عليها ، ويحذف منها ، فإذا كلتاها غريبة خفية المعالم ، حتى ما يكاد يعرف أصلها إلا بعد تقليب وإمعان نظر . وذلك كتحفيف مرآة إلى مرآة حيث يقول :

كالأقحوان مراته ومذاقه للذائق

صباه صرف قرقف شيت بنطفه بارق

وتخفيف مستلم ، أي لابس اللأمة إلى مستلم في قوله :

لما رأوا بنى قومهم لهم

إذ قطعوا من شوابك الرحم

كانت حصونا لهم سيوفهم

وكل حامي الحفاظ مستلم

---

(١) أوردوا : أسروا وتهدروا ، من أوردى الأيل منها وأكثر شحمها . العود : العود القديم . تامكا : رقبيا من تمك السام إذا طال وارفع ، وتعجزوا كنتزو التامك أيضا السام ما كان ، والفاة العظيمة .

وقوله :

لم نستطعها إلا بمستلم  
عارى الظنايب تحته فرس<sup>(١)</sup>

أما قطع همزة الوصل فثاله قوله :

قالت كثيرة لى قد كبرت  
وما بك أليوم من داهمه

وقوله :

يتقى الله فى الأمور وقد أذ  
لح من كان همّه الإتقاء

ونختم هذا البحث كما بدأناه بحمد الله ، والصلاة على رسوله  
وسائر الأنبياء والمرسلين . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

---

( ١ ) الظنايب : جمع ظنوب ، وهو حرف الساق من قدم ، أو ظم . وكفى  
بما رى الظنايب عن الاستعداد والتقصير .

## فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	فاتحة الكتاب
٥	حياة ابن قيس :
٥	١ - نسبه
٦	٢ - مولده
٨	٣ - اسمه
١١	٤ - كنيته
١٢	٥ - رحلاته
٤٩	٦ - ابن قيس وعبد الله بن جعفر
٥٠	٧ - صفاته
٦١	٨ - أسرته
٦٣	٩ - وفاته
٦٦	شعره
٧٨	شعره وعصره
٩١	خصائص شعره

## فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٩٩	أغراض شعره
١٠١	الغزل
١١٨	المدح السياسي
١٣٤	الرثاء
١٤٢	الفخر
١٤٣	الوصف
١٤٩	الهجاء
١٥٣	آراء القدماء في شعره ، نقد وتعليق
١٦٣	ضرورات شعره

## الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١	١٣	عسى	عسى
٨٣	١٥	الاختين	الاختين
٨٥	١٠	الطوائف	الطوائف
١٠٥	١	بشف	بشف
١١٤	٤	سنتها	سنتها
١٢٠	٣	لائميتين	تُسمين
١٢٧	١١	حقيقا	حقيقا
١٤٨	٦	بجو	بجو
١٦٢	٤	يستقل	يستقل





## قائمة الكتب

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	القرن هـ
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق في الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكي	الأستاذ محمد عاطف البرقوقي	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	محمد عطيه الابراشي	٢٠٠
٥	الحبشة	حسن محمد جوهر	٢٠٠
٦	الغزل عند العرب	حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهيه مصطفى قدوره	٢٥٠
٨	الفلسفة القرآنية	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	الشيخ محمود شلتوت . الشيخ محمد محمد المدني	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطيه الابراشي	١٥٠
١١	أبو العتاهية	محمد أحمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهد الذهبي	الاستاذ انور هي اسماعيل حتى . ابراهيم خير الله	١٠٠
١٤	صرخة في واد	الأستاذ محمود غنيم	٣٠٠
١٥	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبدالله حسين	٢٥٠
١٦	الوزراء العباسيون	الأستاذ محمد أحمد برانق	٢٠٠
١٧	الاستعمار الفرنسي	أحمد رمزي	١٥٠
١٨	اللعب والعمل	دكتور علي عبد الواحد	٨٠
١٩	من كل نبع قطرة	الأستاذ حسن جوهر	٦٠
٢٠	ولادة	الأستاذ علي عبد العظيم	١٥٠



13

Bibliotheca Alexandrina



0388279



10